بو ناصر الطفّار

الحرايق

الحرايق

بو ناصر الطفار

الطبعة الأولى ٢٠١٦
تدقيق لغوي مازن السيّد
إخراج فنّي ميرا أبو ملهب
صورة الغلاف محمد بدرا
تصميم الغلاف محمد السعودي
رسم داخلي سامر صائم الدّهر

النسخة الإلكترونية ٢٠١٧

تدقيق لغوي يريفان حسن

إهداء

إلى ملائكة شرفات بيروت،

بٌوصلة حجمنا الحقيقي .

فابنوا السفينة ماكنة
اوقدوا للسفينة كلّ شموع الصبا
لنرى ما صنعناه حين المصابيح غابت
ونفحص أنفسنا
ونفحص النّاس
نفحص كلّ الحروب
فإنّ اختلاط الضحايا مع القاتلين مصاب
أنا واقفٌ في الخراب
أسمّيه أو لا أسمّيه عن حذر
انما هل شبعتم دماً
هل شبعتم صبايا وغلمان
من كل هذي السبايا
احمل المقبرة
واحاول إيقاظ أمواتها .

مظفّر النوّاب
"كيف نبني السفينة في غياب المصابيح والقمر"

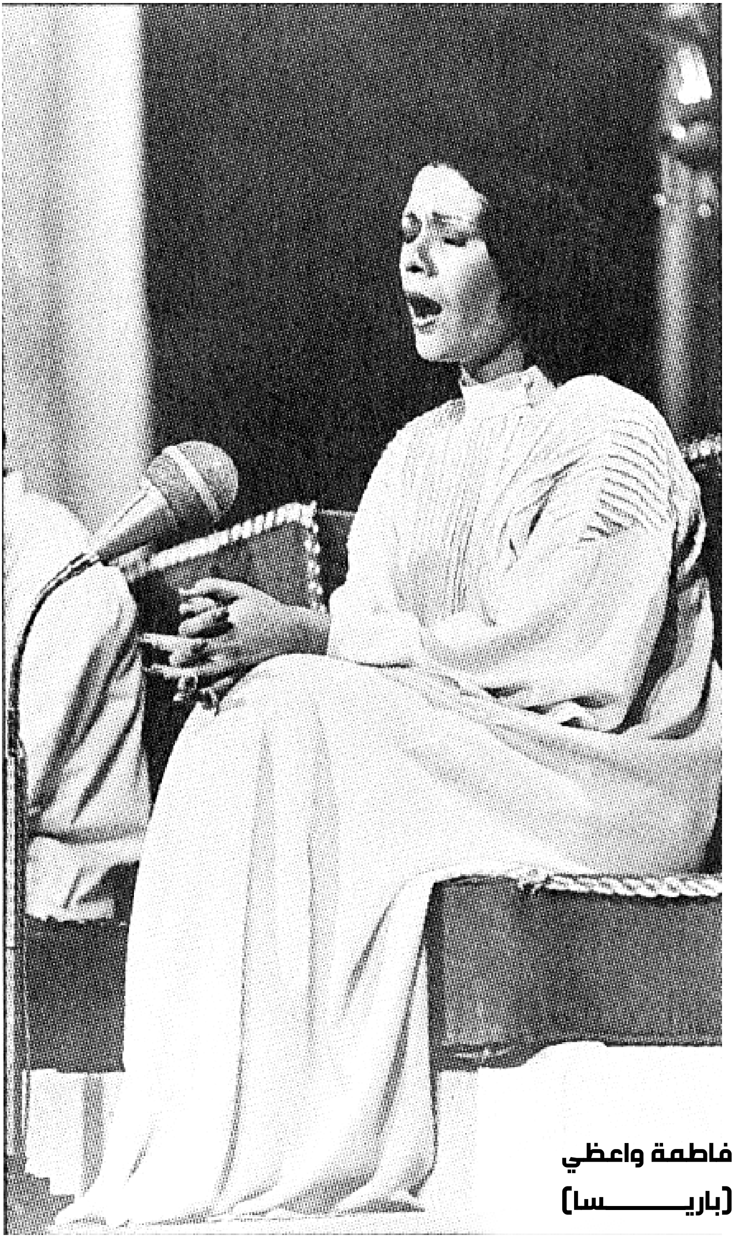

فاطمة واعظي

(باريــــسا)

مقدّمة

ربّما نحن نحبّ بعضنا بهذا القدر، ربّما لا. ربّما نحن نكره بعضنا بعضًا وينتظر كلّ منّا الفرصة المناسبة للانقضاض على الآخر وسحقه، ربّما لا. ربّما نحن واحد أو عشرة أو ألف، ربّما نحن لا شيء ولا أحد ولكنّنا نقوم بكلّ ما نقوم به لأنّنا نخاف فقط. كلّ ما في هذه الدنيا مخيف، خصوصًا أشياؤها الحلوة. تلك الأشياء الثمينة الّتي نبذل قصارى جهدنا للحصول عليها وما إن يحصل ذلك حتّى نبدأ ببذل ما تبقّى من جهدٍ قليلٍ للحفاظ عليها وحمايتها من الخطر في مكانٍ آمنٍ في بيوتنا وقلوبنا.

غالبًا ما يكونُ خوفنا من خسارة من نحبّ أكبرٍ من حبّنا نفسه. ليس الحديث فقط عن الهجر والغربة والقطيعة والجنون، بل عن الخسارة التي لم نتعلّم بعد كيف نعوّضها هنا، عن الموت والرّحلة الأخيرة إلى الحرايق.

ليست الحرايق مقبرة نائية في قرية نائية فحسب، كلّ مقابر الدنيا هي الحرايق الّتي تبتلع أجسادنا وأجساد من نحبّ دون رجعة، إن كان القبر مسوّرًا بالحديد والزّخرفات والرّيحان والبخور أو كان في أحشاء سمكة مفترسة في المحيط متحالفة مع وحوش الحرب البرّيين بوجه المساكين.

ربّما كان أكثر النّاس خوفًا من الحرايق هم أولئك الذّين يستمرّون بنكران هذا الخوف بأفعالهم وأقوالهم دون أن يسألهم أحد، ربّما أكون أنا واحدًا منهم، ويكون أنا آخر قويًّا بوجهها بصدق ويعتبرها محطّة إجباريّة للجسد كما الشّيب والنّوم.. ربما يأتي أنا ثالث ليأخذني إلى مكان آخر أكثر صدقًا وواقعيّة من الحديث عن الخوف من الخسارة أو عدمه، إلى الكمّ الهائل من الخسارات التي نبتلي بها ونقدمها طوعًا أثناء تضييع وقتنا في خوفنا من الموت، الخسارة الكبرى الحتميّة التي يمكن أن تكون في نهاية هذا كلّه ربحًا فحسب.

الصوت

١

هذه صفحة بيضاء، وهذا قلم. تفضّل، قل، تكلّم، اكتب، ارسم ما تشاء عليها بيدك طالما أنّ لسانك عاجز عن قول ما تريد قوله منذ سنوات كما تكرّر دومًا. علّك تستفيد من أطرافك مرّة بالقيام بعمل لا يدر الأرباح على الآخرين ويدر التعب على قلبك.

لست أواسيك، ولا أقدّم لك وسائل تعبير بديلة. إنّها اليد يا صديقي، ألا تعلم كم يمكنها أن تتحدّث وتلفظ كلمات أكثر ممّا يفعل اللسان بكثير؟ ليس عبر الكتابة فحسب بل بكلّ حركة تصدر عنها في كلّ لحظة.

هل نسيت أصابع ذاك الطّفل المشرّد يلمس بها شفتيه يوم رآك وأنت تضع كعكة الكنافة في فمك بكلتي يديك؟ ألا تذكر آخر تلويحةٍ من يد حبيبتك لك قبل الرّحيل كم حملت من الشتم والغزل معًا؟ ألا تذكر لمسة يد أمك للندبة الجديدة بخاصرتك كم حكت ولعنت وعطفت؟ صفعة الدركيّ على وجه بائع المياه المسنّ، شدّة يد أبيك على يدك يوم الدفن، إصبع صديقتك الأوسط يحلّق عاليًا فوق خوذات وجزم العسكر، مشية يد جدّتك المتثاقلة على جبين ابنها الشّاب المسجّى في براد الموتى، يد الطفل الفلسطينيّ البائسة ترفع شارة النّصر بوجه قاذفة اللّهب في الضفّة الغربيّة ويد ياسر عرفات تهز يد رابين مزهوّةً في أوسلو، أصابع تلك الراقصة النّحيلة وهي ترسل آلاف الشّتائم للسّماء بحركةٍ رقيقةٍ دافئة. هل نسيت يد رفيق دربك ترسم حرف الزاي لأخيه الأصمّ ويد الأخير تحاول سماع الحرف عبر لمس الحنجرة؟

اكتب. اكتب باسم حزنك الذي سبق. بكامل حريّتك دون أيّ خوفٍ من تقييمٍ وتقديرٍ من الآخرين الأحياء جدًّا، فهم ليسوا معك لا في النّهار ولا في اللّيل. توقّف عن مداراتهم وفعل ما يرضيهم. إنس أمرهم جميعًا كما تكون أنت منسيًّا حين ترطم رأسك بالجدار كالمجنون وتحطّم أغراضك التي تحبّ وتستيقظ مرعوبًا في اللّيل على أصواتٍ تدوي في رأسك تهدّدك بقطع الرّأس وطحن الرّئة، فتجد الدّماء على الوسادة لكثرة ما صررت أسنانك.

فلتكن هذه محاولتك الأخيرة، أو بالأحرى محاولتك ما قبل الأخيرة، كي تقول ما تريد قوله لي وللعالم ثمّ تريحنا وترتاح قليلًا من ثقلك عبر تقسيمه على ظهور

الآخرين حصصًا تخفّف عنك وتذكّرك بأنّ قليلًا من العدالة قد تبقّى في هذا العالم. أنّك لست منسيًّا إلى هذا الحدّ.

أنت الذي كتبت مئات الخواطر الافتراضيّة، ونصحك الكثيرون بأن تكتب على الورق.

أنت الذي كتبت عشرات الأغاني التّي حفظ كلماتها المئات غيبًا وكتبت مقالاتٍ كثيرةً في الصّحف الّتي عشقتها طفلًا. هل نسيت الأبحاث الجامعيّة الضخمة التي كتبتها لنفسك وللآخرين مقابل أجرٍ أيّام الدراسة الجامعيّة مكّنك من دفع الأقساط؟ هل نسيت رسائل الحبّ التي كتبتها بأسماء أصدقائك لحبيباتهم فذوبّت قلوبهنّ وأوقعتهنّ بالغرام زيفًا بالأصابع الخطأ؟ ترى ماذا سيفكّرن إن عرفن ذلك الآن؟ لقد كتبت كلّ هذا يا صديقي، لكنّ الوضع مختلفٌ في هذه الفترة وقد تجمّدت يدك وجفّ قلمك وارتفع جدارٌ ضخمٌ بين أذنيك وقلبك. لم تعد تملك سوى محاولة تذويب الجليد عن جسمك بحرارة الورق الحقيقيّ كي ترى جلدك مجدّدًا ويراه النّاس. ربّما سيمكّنك ذلك من الانطلاق من جديد نحو أيّ مكانٍ تشتهيه.

لكنّني أرجوك وأحلّفك بتجاعيد وجوه كلّ الّذين تحبّهم ألّا تردّ لي الورقة بيضاء ناصعة خالية إلّا من سطرٍ واحدٍ في رأسها يقول: " لا أعتقد أنني قادرٌ على التّعبير عبر الكتابة "، لأنّ ورقة كهذه تحمل في أسفلها هامشًا غير مرئيٍّ بخطٍّ صغيرٍ مملٍّ يقول: "أراكم في الحرايق" .

٢

اللعنة عليك، اللعنة على وجهك وروحك، اللعنة على هوسك الدّائم بحرق كلّ ما هو جميل قبل أن يبدأ.

يا رجل! ألم تكتف من خيباتي بعد؟ ألم تملّ ملامح وجهي المكرّرة في كلّ مرّة أترك فيها كلّ شيء وأرجع كجندي مكسور من معركةٍ حاسمة؟ لقد احترفت لعبة وضع العصيّ بالدواليب وختمتها وأصبح تكرارها مملًّا كالموت. ابحث عن غيرها.

سنواتٌ قضيتها بانتظار هذا اليوم، عضضتُ على ألف جرحٍ وتحمّلتُ ألف مصابٍ وسكتُّ عن ألف إهانةٍ يوميةٍ وقبلت على نفسي آلاف وقفاتٍ الذلّ مواسيًا إيّاها بأنّ اليوم سيأتي... أنّني سأرتاح وأجعل من هذا الحمل كلّه نصًّا رتيبًا يُقرأُ في ساعة ويُنسى في نصفها ثمّ ينتهي كلّ شيءٍ وأنام مبتسمًا لبضعة أيّام.

ثمّ تأتي أنت كعادتك كي تسحب الأمل بعنفٍ من يدي كما تسحب الأمّ قدّاحة النّار من يد طفلها، وتضعه في علبةٍ حديديّة مقفلةٍ بالسّلاسل: " تفضّل، قل، تكلّم، اكتب، ارسم". اللّعنة على فعل الأمر مهما قال. اللعنة على حرصك الدّائم على لفّ عنقي بسلاسل العجز ومعادلات الموت في كلّ لحظةٍ تراني فيها متحمّسًا لقول أو فعل أو تغيير أيّ شيءٍ في حياتي.

انظر يا هذا. يمكن لحيلتك بالحرص على راحتي أن تنطلي على القرّاء الغرباء عنّي وعنك، لكنّها لن تنطلي عليّ أبدًا. أعرفك جيّدًا وأعرف أنّك لم تختر هذه المقدّمة عن عبثٍ أو حسن نيّة. لقد اخترتَها لأنّك تعتقدُ أنّني سأتعثّرُ كما تعثّرتُ سابقًا ألف مرّة بفضلك، أنّني سأرمي الورقة بسهولةٍ وأبحث عن نافذةٍ جديدةٍ غير تكملة ما أريد قوله هنا. أتعلم؟ سأخذلك هذه المرّة يا صاحبي. سأكتب كثيرًا، ليس تنفيذًا للأوامر ولا اتبّاعًا للنّصائح الخبيثة منك، سأكتب لك وحدك وأقرأُ لك كلّ جملةٍ تتمّ بصوتٍ عالٍ عدّة مرّاتٍ كي تجتمع الكلمات كلّها على لوحةٍ بيضاء تواجهك وترسم يدًا راجفةً تدلّ سبابتها عليك بشماتةٍ قائلة: "من يواسيك الآن أيّها الحزين؟ لقد كنت مخطئًا" ويذهب كلّ شيءٍ سدى، ربّما حينذاك سأراك أنت هناك، في الحرايق.

٣

اسمحا لي أن أتدخّل فأنا أيضًا أعرفكما جيّدًا كما أعرف نفسي، لا بل أكثر ممّا أعرف نفسي أحيانًا كثيرة.

لقد سئمت كلّ هذا الهراء بينكما طوال هذه السّنوات أكثر من سأمي من اسمي الذي استبدلته لاحقًا بعشرة أسماءٍ أخرى. لا تنسيا أنّكما تتصارعان هذه المرّة على الورق أمام النّاس جميعًا وليس في رأس ذلك المسكين كما جرت العادة. فالأمر بهذه الحالة ليس بهذه السّهولة، يمكن لأيّ كلمةٍ غير محسوبةٍ أنّ تدمّره وتحرقه نهائيًّا وتحرقكم معه.

ألم يحن الأوان لكما بعد كي تعرفا أنّ معركتكما ليست معركة حقٍّ ولا هي صراعٌ بين ظالمٍ ومظلوم؟ إنّها ليست بمعركة أصلًا. هي علاقةٌ تشبه قليلًا علاقة الطّفل السّارق مع أبيه الذي يأخذ حصّته من السّرقة ثمّ يدعو له بعدها بالهداية ومعاشرة أولاد الحلال وكفّ يد أولاد الحرام عنه.

سأبدأ بك أنت كونك الكبير الواعي، كما تقول جدّتك "الخطّ الأعوج يأتي من الثور الكبير". أنت كسولٌ وجبان، وما أبشع اجتماع هاتين الصّفتين عند إنسانٍ واحد. تراه يسخّف أيّ حديثٍ يسمعه كتعويضٍ عن خرسه وخوفه من قول الأشياء في وقتها. يخوّن أيّ محاولةِ هروبٍ من سجنٍ تغليفًا لخوفه من كلّ ما هو خارج سجنه، تراه مستحبسًا متعايشًا مع الجدران و الجرذان ولسعات السّوط فوق ظهره، يستهزئ بكلّ خطوات النّاس للأمام كانت أو الوراء لينسى قعوده وخوفه من الاقتراب من تحقيق أو حتّى محاولة تحقيق ما يحسّن حياته، يشتم كلّ حركةٍ في الكون ليواسي الصّنم الصّغير الذي صاره بوجه الأصنام الضّخمة. يحاضر ساعاتٍ في بشاعة الكون وإجرام الجّنس البشريّ وتسيير الإنسان لتبرير جبنه وانسحابه من المعارك الحقيقيّة وولعه بخوض المعارك الصّغيرة التّافهة في زواريب لا تحقّق له سوى بطولاتٍ وهميّةٍ يواسي بها قلقه قبل النّوم.

أمّا أنت فأحزن عليك.. حزنًا لا يرتقي لمستوى الشّفقة بل هو أقرب إلى حزني على كلمةٍ لم أقلها ترك غيابها ندبًا في ذاكرة من أحبّ. آه، كيف ستفهم هذا التشبيه يا صديقي وأنت لا تعرف الحبّ أصلًا؟ كيف أكتب لك عن لذّة بساطة تحقيق أمورٍ يوميّةٍ صغيرةٍ وأنت لا ترى سوى التّحدي والمعارك في كلّ تفصيلٍ أو حركة تأتي بها؟

علام كلّ هذا الحنق والغضب؟ علام كلّ هذا الرّهان أصلًا؟ يا للبطولة الضّخمة والعمل الجبّار الذي تحاول من خلاله غلب الدّنيا كلّها، أن تكتب. مسكينٌ أنت، مسكينٌ صدّقني. هل تعلم كم مليون شخص يكتب في اليوم كم مليون كلمة؟ يكتبونها صامتين، بل يكتبونها لأنهم فضّلوا الصّمت، أمّا أنت فتملأ الدّنيا صراخًا بقولك «سأصمت! أنا لا أقوى على الكلام! لا يسعفني لساني في نقل أفكاري إليكم..» من يقرّر الصّمت لا يصرخ بهذه الحدّة، كلّا؟ ما الّذي يغريك بالصّمت على كلّ حال؟ ولم تظنّه نادرة من النّوادر؟ إنّ الصّمت يكون كالصّراخ أحيانا كثيرة، لكنّه صراخ أكثر كرامة ولياقة بالإنسان كما قرأت مرة.

في نفس هذه اللحظة التي يكتب فيها صاحبنا ما أقول بصمت، يبحث رجلٌ خمسينيٌّ صامتٌ عن رغيف خبزٍ في مستوعب القمامة، وتتأفّف امرأةٌ صامتةٌ من شخير زوجها وتضمّ أخرى صورة فقيدها الشّاب وتبكيه بصمت. صبيٌّ صامت يستمني وأخته تتراسل بصمتٍ مع حبيبها على الهاتف. رجل أعمالٍ يحسب أرباح اليوم صامتًا نفس صمت سائقه الذي يعود إلى بيته ماشيًا عند انتهاء الدّوام. لا بأس، لقد كان يعود جائعًا صامتًا أيّام العمل في المطعم.

في هذه اللحظة نفسها في مكانٍ ما من العالم يضع رسّام اللمسة الأخيرة على لوحته بصمتٍ يشبه صمت عازف البيانو عندما يعزف للجمهور الصّامت في مسرحيّة صامتة. لكنّه صمتٌ لا يشبه كثيرًا صمت المقاوم أثناء حفره للخندق، يكون أقلّ تحفّظًا ودون عواقب. ألم يضغط الطيّار على زرّ الإطلاق صامتًا كي يخطف روح ناي النّائمة بصمتٍ ملائكيٍّ تحت سريرها الخشبيّ الأبيض؟

يمكن لنا ولكلّ شيءٍ في العالم أن يتابع سيره طبيعيًا حتّى ولو كان صامتًا. فالسّكوت لا يعيقنا عن فعل أيّ شيءٍ بل إنّه قد يكون بذاته شرطًا لنجاحنا في ما نقوم به أحيانًا كثيرة، فهو ليس دليل ضعفٍ وإفلاس وإلّا لم لم يسمع أحدٌ صوت الله يومًا؟

أكرّر عليك للمرّة الألف. مسكينٌ أنت لمليون سببٍ أوّلها أنّك ارتضيت أن تحوّل فعل الكتابة العلاجيّ إلى فعل تحدٍّ وانتصاراتٍ في حروبٍ وهميّة، وليس آخرها اعتقادك أنّك إذا كتبت ما يجول في بالك وبالنا ستشفى وتنتقل للعيش في أرض ميعادك سعيدًا هانئًا.

ليست الغاية أن نرمي البؤس من صدورنا على صدور الآخرين كي ننجو، الغاية هي أن نلغي البؤس من جذوره، من نفوسنا ونفوسهم. لذا نحن مساكين يا رفاقي، كلّنا. وما أجمل يوم اجتماع المساكين في الحرايق.

٤

أوه لحظة! مساكين كلّنا؟ هل قلت هذا لهما بدم باردٍ؟ أين أدفن رأسي الآن منكم أنتم الثلاثة؟ مساكين؟ بصراحة لم أكن أريد أن أتدخّل بكلّ هذا العبث، لكن أن أجدك تستخدم تلك ال"كلّنا" الملعونة هكذا و بهذا السّياق فهو أمرٌ لا يمكنني تمريره ولا السّكوت عنه.

قل لي بالله عليك، بالله عليكم جميعًا، ماذا تعرفون عن المسكنة والمساكين كي تتباكوا على أنفسكم بين كلّ فقرةٍ وأخرى وتتعرّوا دون طائلٍ أمام النّاس؟

حدثّوني عن أسوأ ما مرّ عليكم من أيّام، تذكّروا! لا تشردوا كربّان سفينة في محيطٍ هادئ. حدثّوني عن أقسى لحظات حياتكم وأشدّها معاناة، أعصروا أدمغتكم لاسترداد أمرَّ دمعةٍ حُبِسَت وأقسى عضّة على جرحٍ مَرّت في حياتكم ثمّ عودوا بعد ذلك لاقتحام نون الجمع تلك عنوة والتباهي بالمسكنة.

يا شفقتي. حالكم كحال مراهقٍ يكره مدرسته فيستسهل وصفها بالسّجن ووصف نفسه ورفاقه بالمساجين واضعًا نفسه في خانةٍ واحدةٍ مع المساجين الحقيقيين الذّين يتقاسمون مهاجعهم المتعفنّة مع ظلالهم وفضلاتهم وبرك دمائهم. هكذا أنتم!

تنخر عظامكم الرّغبة في الحصول على الشّفقة والظّهور بهيئة أشدّ الأرواح بؤسًا، ولم؟ لأنّ أوّلكم يجد صعوبة في التّعبير عن خواطره بلسانه، يا للمصيبة! وثانيكم يائسٌ من شفاء الأول يضربه بيأسٍ كمن يضرب في الميّت لردّ روحه.

أمّا ثالثكم هذا الوقح، فقد سئم الصّراع السّاذج بينكما، سئم صراع جبهتين مخطئتين يشبه الصّراع على الحريّة بين طاغيتين أو التّنافس على الجنّة بين كافرين، سئم هذا كلّه فانسحب من الميدان إلى رقعة أمانه وتفرغ لشتم الأطراف والجّبهات جميعًا دون تقديم أي فعلٍ أو حلٍّ أو بديلٍ ينقذ القليل من أو ما تبقّى. يشتم يشفق ويهين، يشتم يشفق ويهين ثمّ يضع نفسه في خيمةٍ واحدة معهما ومع كلّ مساكين الأرض باطمئنان.

لن تمرّوا. رغم كلّ أحزانكم الصغيرة هذه لن تمرّوا. بل أعتقد أنّكم ستنسحبون طوعًا حين تقرأون ما تيسّر من بؤسٍ يوميّ لفردٍ واحدٍ من سكّان هذه الخيمة الأصليين.

يبدأ نهاري بالاستيقاظ رعبًا على صوت المنبّه البشع مهما عدّلت في نغمته، حتّى ولو حدّدتها بأغنيةٍ أحبّها سأكرهها بعد أيّام. تستيقظ حواسي بالغضب وأنتشل عنوةً من فراشي كما تنتشل البسمة من وجه أمٍّ فقدت ولدها بقذيفةٍ مفاجئةٍ أمامها.

أستيقظ في ساعةٍ لم أحدّد توقيتها أنا ولا جسدي ،بل حدّده رجلٌ متخمٌ عطرًا وذهبًا ونفوذًا، رائحته تشبه رائحة المطّاط، يجلس على كرسيّ مريحٍ صنع من جلود المسحوقين، يقتات من صرخاتهم واستغاثاتهم، ويتخم حساباته المصرفيّة بما تتكارم عليه أجسادهم من قطرات العرق تعبًا ورعبًا، تجري دمعاتهم مع الدّم في عروقه، تصبغ دماؤهم كؤوس خمره ولون خدوده.
حتما تعرفون جميعًا لذّة فنجان قهوة الصّباح في البيت، لكنّكم لا تعرفون شيئًا عن مرارتها وشبه طعمها بطعم البول عندما يكون ارتشافها واجبًا ثقيلًا مفروضًا عليكم كما يفرض التزييت على الآلات المنتجة كي لا تصاب بعطلٍ مفاجئٍ يعيق عملية الإنتاج والرّبح.
لا تعرفون كم أكره صوت فيروز عندما تغنّي وتطرب الكون لارتباطه في رأسي بزحمة السّير الصّباحيّة الخانقة ووجوه النّاس المتجهمّة التي تتسابق فيما بينها كالذبائح إلى المسلخ، من يصل إلى المذبح أوّلًا هو البطل.
لا تعرفون قسوة أن تسلّموا صباحاتكم المفترضة بظرفٍ مختومٍ لمحاسب الشّركة حيث تعملون ليسعّرها ويحدّد قيمتها. لا تعرفون ثقل التحيّة الصباحيّة المفروضة على مديرٍ تكرهونه ويكرهكم، لا يرى فيكم إلّا كلفة إنتاجٍ ضروريّة لتحقيق مكسبٍ يفوق راتبكم. تلك الرواتب التي يعطيها لكم بيمناه ثمّ يصفعكم بيسراه، فتردّونها طوعًا ليده اليمنى صاغرين واهمين أنفسكم أنّكم أفضل من غيركم حالًا وأنتم لستم سوى مستهلكين أغبياء لحاجاتٍ فرضها عليكم نظامه.
أنام محاولًا تعديل الألم بين ظهري وقدمي، أقودُ سيّارة شحنٍ ليست لي، لأوزّع بضاعة ليست لي، لشركاتٍ ليست لعمّالها، يوقعون لي على فواتير استلامٍ ليست لي تحقّق أرباحًا ليست لي كمقدّمة لتحقيق أرباحٍ أخرى ليست لي.
أقف وسط هذا كلّه كمسمارٍ فولاذيّ عنيدٍ ينزل الشّاكوش عبثًا على رأسه مرارًا وتكرارًا على مدار السّاعة، ثمّ ماذا؟ كم سيصمد مسمارٌ وحيد تحت ضربات مطرقةٍ لا تعرف الملل؟
تشتمني تلك البغال المتخمة فيما بينها بالإنكليزية ظنًّا منهم أنّني لا أفهمها فأردّ بابتسامةٍ غبيّة، لأنّي أخاف على راتبي. يحتاج أحدهم توقيعي على وصلٍ غبيٍّ فيسألني

إن كنت أعرف الكتابة، أضع كتبي الخمسمئة وشهاداتي كلّها في مؤخرتي، أحصرها جيّدًا، ثمّ أبتسم له وأقول له "أكيد، يمكنني التّوقيع أيضًا" وأوقّع على الوصل بشطارة.
ألاحق ظلّي في مدينةٍ شوارعها مروّسة كأسنان المطحنة، أسنانٌ تعرف جيّدًا كيف تطحن العظم واللحم والرّوح والدمع والصوت وتحيل كلّ ذلك إلى كتلة بشريّةٍ بائسةٍ لا وجود في قاموس يوميّاتها للراحة والفراغ. أقضي يومي كلّه راكضًا كجرذٍ مذعورٍ بين هذه الأسنان متفاديًا سقوط أحدها على رأسي قبل آخر الشّهر.
تريدون استمرار القتال على التّفاهات وأنا لم أعد أريد شيئًا سوى الرّحيل، لكن هذه البقعة صارت لعنتي. أكرهها بنفس قدر اقتناعي الغبي بأنّني لا يمكن أن أعيش من دونها، فأبقى حاسدًا أكعاب أقدام من ذهب ليحاول بناء حياةٍ طبيعيةٍ له خارجها، حتّى ولو فشل، فمحاولة الحصول على حياةٍ طبيعيةٍ تعتبر انتصارًا كبيرًا أمام التّسليم بأنّنا حشرات سامّة تستحقّ الدّعس من أولئك الأغنياء الأطهار الذين ميّزهم الله عنا وكرّمهم.
سيكتب لي أحدكم الآن بملل: "تحرّك! افعل شيئًا! توقّف عن النّواح وانتفض على نفسك". هيهات، يوم تحرّكت وصرخت محاولًا استرداد شعرة من رأس كرامتي المدعوس أرسلت الحكومة القّذرة بوجهي مرتزقتها وثيرانها الهائجة المتعطّشة للدّم، هم فقراء مثلي للأسف، لكنّهم ضربوني وأهانوني وسحلوني في الشّارع، أطلقوا عليّ الرّصاص الحيّ والمطاطيّ وتركوا في جسدي وروحي تشوّهات أحتاج الكثير كي أتخطّاها وأسامحهم عليها. ربّما كانوا ينتقمون من واقعهم عبر ضربي، لأنّني ذكّرتهم كم هم أذلّاء وحقراء رغم رهبة هندامهم الغبي. يحملون سلاحًا يحمي من أفقرهم وأفقر أهلهم وطردهم من قراهم بدل أن يلعنوا روح أهله.
اليوم رائحة الزّبل تملأ الشّوارع والبيوت، أعيش ثلثَي نهاري دون كهرباء، رائحة المَاء تشبه رائحة نفس الدّرك، يكبر أبي السّتّينيّ قليلًا قليلًا في عمله الكادح وأنا مرعوبٌ من عدم قدرتي على سنده في وطنٍ لا يؤمّن للعجوز أي شيءٍ سوى الذّل، لا يتبقّى لي من معاشي آخر الشّهر ما يكفي لوجبتين في اليوم، بدأت عوارض المرض والأعصاب تظهر واضحة في جلدي وعقلي و لساني، تخلّيت عن فكرة جلب طفلٍ لعالمٍ كريهٍ

كهذا وتعريضه لكلّ هذا القهر. عالمٌ كريهٌ بشدّة وغرابة لدرجة أنّهم وجدوا منذ مدّة جيفة بقرةٍ عائمة في البحر!

في الشّارع أرى شابًا لا أعرفه يحتضن شابة لا أعرفها فينظر إليّ نظرة احتقارٍ وتعالٍ كأنه يحتضن أختي المخطوفة أمامي، أرى دركيًّا يستقوي على البسطاء ويهينهم ويحرص على امتصاص آخر مليّم تبقّى من دمائهم المخبأة في زوايا الجّيوب، لكنّه يقف ككلبٍ جائعٍ أمام امرأةٍ تمرّ أمامه وككلبٍ مطيعٍ أمام موكبٍ أمنيٍّ لحراسة شخصيّةٍ نافذةٍ في النّظّام. أرى هذا الموكب يخترق صفوف النّاس المتراصّين كالحشرات في زحمة السّير، يدعس عليهم جميعًا، يرميهم جانب الطّريق ويكمل رحلته بسلام...

حاصرتنا القوى الأمنيّة مرّة في نفقٍ مظلمٍ خانقٍ في بيروت لا يدخله الهواء، شعرت بصدري المريض يلعنني ويحرقني عمدًا، بقّينا نصف ساعةٍ نستنشق دخان سياراتنا في جوٍّ أشبه بالصّحراء المغلّفة بظلامٍ وغبار، بكيت من حدّة سعالي ومحاولاتي البائسة لإيجاد قليلٍ من الهواء أمنع به روحي من الإفلات.. كلّ هذا حصل لإفساح المجال لموكب أحد ممثّلي الشّعب للمرور بهدوء وسكينة دون تلويث عينيه برؤية ملامح من انتخبه من الأغبياء.

في كلّ مرّةٍ أنطلق صباحًا لعملي أشعر كأنّني أقع في حفرة أفاعٍ سامّة جائعة، أمر على هذه المحطّات كلّها كي أصل إلى هنا وأقرأ مزايداتكم التّافهة في الحزن والمسكنة. أصل كأنّني نجوت، لكن لم أنجو؟ لمن أنجو؟ كي أدخل البيت، أشرب البول مجددًا، أضع براز الشّركات في معدتي، أشتم المدينة التي تخنقني وتشوّهني جسديًّا ونفسيًّا بوتيرةٍ يوميّةٍ متصاعدة، أتلهّى قليلًا لأغفو تمهيدًا للاستيقاظ مجدّدًا على صوت المنبّه البشع مهما عدّلت في نغمته وتكرار كلّ ما فعلته في الأمس، مع تعديلٍ حقيقيٍّ وبسيطٍ واحد، أنّني اليوم أقرب بمنبّهٍ واحدٍ إلى الحرايق.

٥

لن تفهموا شيئًا من جنون هذا العالم ولن تعرفوا طريق النجاة منه قبل أن تقتنعوا أنّ للمرآة وظيفة معاكسة تمامًا عمّا تظنّون، خصوصًا أنت أيّها البائس زورًا، الحريص على منع اقتراب الدّخلاء من خيمتكم، خيمة المساكين. أيّها المحتكر لنون جمعٍ لا تمتّ لها بصلةٍ أصلًا بحسب نفس المنطق الذي تستعمله.

إن نظرتَ إلى المرآة سترى ربّما شخصًا يشبهك أو آخرًا يقلّدك لكنّك لن تجد نفسك فيها أبداً. ستجد صورة غير حقيقيةٍ لكائنٍ غير حقيقيّ، ظلًّا ملوّنًا أهمّ إنجازاته أنّه يستمر بالتحديق بصلابةٍ بعينك طالما أنت تحدّق بعينه ولا يملّ أو يهزم. لكنّه سيختفي تمامًا عندما تقرّر أن تكسر المرآة بحركةٍ صغيرةٍ من يدك، أن تكسر سجنه. كان من الأفضل لي ولكم ولحسن سير ما يحاول صديقنا كتابته أن تتوقّف اللّعبة هنا و أن لا أتدخّل في هذه اللحظة لأنقد وأهاجم من كتب قبلي وأحشره في زاويةٍ ما كما فعلتم ببعض جميعًا. لقد كشفت اللعبة للقارئ الآن، لكنّ حظّي، ولا أعرف إن كان سعيدًا أم تعيسًا بعد، رمى هذا الكذّاب المدّعي أمامي ثمّ فتح لي مجالا للردّ، فأصبح حسن سير السياق تفصيلًا لا يعنيني.

أقول كذّاب لأنّه استحقّ اللقب بعد أوّل جملةٍ تامّةٍ كتبها. قال أنّه لم يكن يريد التدخّل في العبث ثم تدخّل بصفحاتٍ كاملةٍ لا تقلّ عبثًا عمّا ينتقد. صفحات تروي لنا تفاصيل بؤسه اليوميّ المزعوم وأحقيّته في نيل صفة المسكين كونه من سكّان خيمة المسكنة الأصليين. أراد أن يبصق عليهم فخذلته البصقة وحطّت على لحيته.

أظنّك تعرف جيّدًا يا كذّاب كم من النّاس يتمنّون أن يستيقظوا على أيّ صوتٍ غير صوت التفجير مثلًا أو صوت قرقعة المفاتيح في باب السّجن الحقيقيّ، أو أن يستيقظوا ببساطةٍ في بيتٍ له باب كما تستيقظ أنت، مهما كان شكل ما تبقّى من يومهم.

كيف تسمح لنفسك أصلًا أن تزاود على أيّ أحدٍ بالبؤس وفقدان السّعادة؟ خصوصًا عليهم هم أمامك في المرآة. أمجنونٌ أنت؟ لا يحقّ لك بتاتًا قبول أو رفض انتساب أيّ أحدٍ لهذه الخيمة فهي ليست نادٍ للمشاهير والأغنياء الذّين يتنافسون فيما بينهم على الصّدارة، لأنّ الصّدارة في الحال هذه أمرٌ لا يحسد عليه أحد، الصدارة في ناديك تعني أن تكون أكثر الناس مظلوميّة وتهميشًا وحزنًا في الكون.

لا يحقّ لك كلّ ذلك وأنت تستيقظ على نغمةٍ ولو كنت تكرهها في ساعةٍ محدّدةٍ ولو

لم تكن أنت من حدّدها لأنّك سمعت ربّما عن الملايين في العالم الذين يتوقعون في كلّ لحظةٍ أن تمر طائرة الموت لتطحن روحهم وأرواح أحبّائهم النّائمة في لحظةٍ خاطفة. أولئك الذين يسحبهم الجلّاد بالضرب والإهانات في منتصف الليالي للركض عراة تحت المطر أو للعب دور الكلب المسعور والعواء أمام زوجة الضابط كحلقة ترفيهٍ تسلّيها قبل أن يقمعها في الفراش ببسطاره، أو تلك العائلات الكاملة التي تفترش الأرصفة للنوم والاستعطاء.

هل رأيت المسامير التي وضعتها الحكومات تحت الجسور لمنعهم من النّوم؟ رأيتها؟ ماذا فعلت بهذا الشّأن؟ لم لم تستقبلهم في بيتك الواسع مثلًا يا من تعيّر الكون كلّه في المثاليّات؟

هكذا أنت صدّقني، تظنّ أنّ البؤس أمرٌ يفاخر به الإنسان ويزيد من قيمته. لا تنفعل، ربمّا أنت لست بهذه السّذاجة، يمكن أن يكون هذا كلّه يحصل عن عمدٍ وتصميمٍ خبيثٍ منك علّ الشفقة تسهّل عليك الوصول إلى غاياتك وتقصّر عليك طريق الضّحك على النّاس الذين يمدّون لك يد العون الماديّة، المعنويّة، العاطفيّة، الجنسيّة.. وسيلٍ من الكلمات التي تنتهي بالقافية نفسها.

تشتم الكون لأنّك محرومٌ من الاستمتاع بقهوة الصّباح عندما تشربها في مطبخك الواسع؟ توقف عن شربها ببساطة مثلك مثل ملايين البؤساء في الكون الذين ينظرون من بعيدٍ لفناجين قهوة النّاس السّاخنة ويبلعون ريقهم. هل تعلم كم من النّاس قد نسوا شكل الشارع الذي تتذمّر من زحمة سيره الخانقة؟ ماذا تتوقّع من شوارع عاصمة بلدٍ صغيرٍ كهذا بربّك؟ أشجارًا وزهورًا وصدى أصواتٍ مطربةٍ؟ هل تتوقّع من عاصمةٍ صناعيّةٍ أن تفرش لك طريقك بالفلّ والرّيحان وتصدح مآذنها بأصواتٍ راقيةٍ تعالج الرّوح؟ استمرّ في الشّتم والتذمّر من تعبك في عملك، لكن تذكّر أنّك تنال مقابله راتبًا يسمح لك بالنوم في فراشٍ، واقتناء خمسمئة كتابٍ، والعودة إلى بيتٍ له سقفٌ وجدرانٍ، وهذه ليست اتّهامات بل اقتباساتٍ ممّا كتبته أنت. بل أضفتَ إلى ذلك بغبائك المعتاد أنّك تشرب وتملي معدتك قبل النوم بغضّ النظر عن تصعيدك الدراميّ المريض باستخدام البول والبراز بشكلٍ متكرر في وصفك. بالفعل تحرّك، وانتفض على نفسك، لم تحاول أن تسحب هذه الورقة من يد من يقرأك؟

توقّف عن شتم هذه المدينة التي جعلت منك كائنًا مبرمجًا ذليلًا وارفض يا صديقي كلّ ذلك وتوقّف عن فعل كلّ ما تقوم به وارجع إلى بيتك القرويّ الجميل الذي تغاضيت عمدًا عن ذكره في عرض مأساتك المزعومة.
كُل من خيرات أرضك التي يمكن بسهولةٍ أن تعطيك كفاف يومك، اشرب مياه النبع الصّافية التي تصل إلى غرفة نومك المطلّة على سلسلة جبالٍ ضخمة، نم واستيقظ على أصوات الهواء وعتاب الطيور وقرقعة أدوات مطبخ أمّك التي تحبّ.
أترك كلّ هذا الهراء المدنيّ خلفك وامش إن كان حقًّا ما تقوله وكنت مقتنعًا به ويهلك روحك إلى هذا الحدّ. فهناك ستتخلّص من الآلة التي صرتها وصارتك، هناك ستكون أقرب إلى جوهرك وأصلك. هناك، ستكون أقرب إلى الحرايق.

أعزّائي... قرأتُ كلّ ما سبق مرّاتٍ عدّة وفي نهاية كلّ مرّةٍ أقرأ يقترب المضمون خطوة إضافية نحو سلّة المهملات تلك، لكثرة ما فيه من لغوٍ وتفاهة.

ما هذا بالله عليكم؟ ما هذا؟ من أين أبدأ وإلى أين سأصل أصلًا؟ وأنت؟ كيف خطرت لك تلك الفكرة المتهوّرة بالسّماح لهم بالكلام والتّعبير أصلًا كما لو أنّ الأمر بهذه السّهولة ولن يعود بألف عاقبةٍ عليك وعليهم؟ هل ظننت أنّك ستقرأ ما يفيدك على بياض الورق إن سلّمته للغوغاء؟ هل ظننت أنهم يقدّرون مبادرةً كهذه ويعرفون قيمتها أو أنهم يعرفون أساسًا كيف يتعاملون معها؟

ألم تكفيك مصائب شعوب الكون كلّه كي تتعلّم أنّ الحريّة التي تعد نفسك وتعدهم بها هي محض خيال؟ ليس هذا فقط، خيالٌ لن يرتّب عليكم سوى الويلات والحروب فيما بينكم. انظر إليهم بربّك! أجزاءٌ صغيرةٌ تتقاتل فيما بينها من هو الأصغر، يشتمون بعضهم بعضًا دون جدوى ولا غاية كالذّباب الطّائش، وأنت تسمّي ذلك كلّه تحرّرًا ومراحل علاج ضروريّة.

ألم تبلغهم حقيقة أنّهم كلّهم ضعفاء مهما قالوا أو كتبوا أو فعلوا؟ نصيحتي لك أن تكتب أنت وتدعهم جانبًا جميعًا يتلقّون ما تقول فقط، اكتب لهم، قل بالحرف الواحد: "الوحدة موتٌ يا رفاقي".

ألا ترى الجبل العاتي الضّخم كيف يكون شكله بائسًا متقوقعًا إن رمي وحيدًا في سهلٍ أو في صحراء قاحلة؟ والتلّة الصّغيرة، ألا ترى شموخها إن كانت جزءًا من سلسلة تلالٍ وجبالٍ تعطيها من الثقة والأمان ما يمكّنها من هزيمة أعتى الرياح والعواصف؟ كن على يقينٍ أنّه لا نصر للأجزاء الصّغيرة على الكلّ الكبير الّا إذا تحوّلوا إلى كلٍّ أكبر منه، هذه ألفً-باء الأحجام الطّبيعية الّتي انتظرت أنت مقتل رفيقك لتجد بوصلتها. لا أقصد إهانتك بذلك ولا تصغيرك، بل كلّ ما أرجوه منك ألّا تنجر أكثر من ذلك في هذه اللّعبة الخطرة.

ربّما هم لا يعرفون ذلك كلّه، ولهذا أنت موجودٌ فوقهم وتحتضنهم جميعًا فيك. تعرف حتمًا أنهم رغم كلّ تعدادهم وضخامة أصواتهم والجرأة في كلماتهم والحسم في مواقفهم لا يستطيعون تحقيق أيّ شيءٍ مهما كبر أو صغر حجمه قبل أن يذوبوا ببعضٍ ليتكوّن منهم كلٌّ واحدٌ كما الله تكوّن. هذا هو تمامًا سرّ القوّة الإلهيّة،

اجتماع جمال كلّ ما في الكون من بكتيريا وحشرات وبشر ونبات وصولًا للكواكب والمجرّات والأكوان، ليشكلّوا جميعهم كلًّا عظيمًا ساحقًا لا يقوى أيّ شيءٍ أو أحدٍ على احتمال النظر إليه أو تصور شكله أصلًا، قبل التفكير بمواجهته ومباراته. هي الوحدة، سلاح إبليس الأمضى ضدّنا، خلواتنا مفتاح جنوننا، والوحشة درجةٌ صلبةٌ في سلّم استسلامنا وقرار انتحارنا. لقد تعلّمت هذا جيّدًا وعشتَه وأحاول دائما تذكيرك به عبثًا.

مهما اشتدّت حدّة سعالك اللّيلي، يبقى فقدان من يقول لك «صحّة» أشدّ. مهما بلغ جمال ما تسمعه من موسيقى، يبقى وجود من ينظر في عينيك في لحظات السّلطنة مبتسمًا أجمل. مهما كبرت رعبتك من دويٍّ ليليٍّ هادر مفاجئ، تبقى رعبة تخيّل همس خافتٍ في الغرفة الموحشة أكبر.

سأرحل يا صديقي وأتركك مع هذا الكتاب الفخّ آملًا منك أن تلحق بي بأسرع وقتٍ وتتخلّى عن هذا الهذيان كي لا تأكلك الوحدة مثلهم. أريدك أن تعرف جيّدًا أنّ حاجتنا لكتفٍ آمنٍ عند بكائنا أمرٌ أهمّ بكثير من حاجتنا لمناديل الورق لنمسح دموعنا المالحة. شتّانَ بينٍ أن نطال الشّمسَ بوحدتنا جماعة، وبين أن تقتلنا الوحدة أفرادًا متماهين مع جدران بيوتنا وشواهد الحرايق.

عدتُ مجدّدًا يا رفاقي وكسرتُ الدّورَ بالكلام لا لشيءٍ سوى لأنّ متعاليًا كتب خلفي يقول أنّه يعرفني كما يعرف نفسه أو أكثر، ثمّ استعمل ذاك التّشبيه الرّتيب عن الكلام عندما لا يقال وسألني كي يصغّرني أمامكم: "كيف ستفهم هذا التشبيه وأنت لا تعرف الحبّ أصلًا؟".

لست بحاجةٍ أن أتفّهَ قولك أنّك تعرفني أكثر ممّا تعرف نفسك، لأنّ رائحة التّفاهة تكاد تعبق بالكتاب كلّه بسبب أقوالٍ مثل هذه. من منّا أصلًا يعرف نفسه قبل أن يسمح لنفسه بالمفاخرة بمعرفة الآخرين بنفس المقدار أو أكثر؟

على كلّ حال القضيّة ليست هنا، القضيّة هي أن أجعلك تصمت للأبد وتتوقّف عن إصدار الأحكام علينا من عرشك الوهمي. كلّا، أنا أعرف الحبّ، أعرفه جيّدًا، عشته وأعيشه في كلّ لحظةٍ تضيّعونها أنتم في تناهش بعضكم بعضًا. وهذا ليس تحدّيًا لا أجيد سواه كما تقول عنّي، بل واقعٌ أعيشه وألمسه بيدي، ولست أدّعيه وأتخيّله كما تدّعي أنت فهم الأمور كلّها وبواطن العقول ومكنوناتها.

الحبّ كالحلم عندما ينتقل بخفّةٍ من خلف العيون إلى أمامها. هو ليس جميلًا بحدّ ذاته، بل إنّ جماله يُقاسُ بجمال حالميه. كيف أقول لك؟ تكون قبله مثل رصيفٍ مملٍّ لا حياة فيه وظيفته احتضان أقدام النّاس وأوساخهم، فيأتي ويجعلك نهرًا دافقًا من الضّوء، ينير كلّ ظلماتك ويحيل كلّ ما حولك ومن حولك إلى كتلٍ من الجمال والإبداع. هو طاقةٌ سحريّة تنقلك من قشور الوجوه إلى خفايا الرّوح.

أن تحبّ يعني أن تتحوّل أمطار الدّنيا وسيولها كلّها إلى نقطةٍ واحدةٍ رقيقةٍ عالقةٍ بين رمش من تحبّ وخدّه. أن ترى في وجهه كمالًا يدفعك إلى الظنّ أنّه قد صمّم أصلًا في خيالك قبل تنفيذه. الحبُّ هو أن تلدَ وتولدَ في كلّ لحظة جنونٍ جديدة، وألّا يكون لك كفوًا أحد في كلّ اللّحظات.

اسمع. أنا أعرف الحبّ جيّدًا، وفي حبّي لا أعرف قيمةً للتّاريخ ولا التّوقيت، أفرش الأرقام كلّها بساطًا ملونًا يمتدّ من قلبِ عاشقٍ إلى قلب الشّمس كي تحرقه وينتشي بنارها، لا أعرف فيه عن الماضي سوى نسيانه، ولا عن الحاضر سوى استغلاله، ولا عن المستقبل سوى خلقه بسلاسة وتفنّن. إن أحببتُ أحدًا، نتحوّل سويّة إلى حكومتين أميركيّةٍ وأوروبيّة، نتقاسم العالم بمكرٍ وخبث، نسخّر الأرض وأهلها لإسعادنا،

نستغلّ حتّى الجنين الرضيع في غابةٍ إفريقيّةٍ نائية. نحمل كيسًا ضخمًا بيدٍ وسوطًا نوويًّا باليد الأخرى، من لا يضع روحه بالكيس كي نضخّم بها روحنا نضربه بالسّوط، ببساطة.
اعذروا استرسالي وإطالتي لكنّ الكتابة عن الحبّ متعة فائقة لمن يعرف الحبّ جيّدًا، خاصة إن حاول كريهٌ مثله تجريدي من هذه المعرفة ومعايرتي بجفاف قلبي.
تتحوّل كلمات العاشق لألعابٍ بيد طفلٍ شقيٍّ، يخلق من اللّعبة الواحدة عَشرَة، ومن المعرفة السّطحيّة عِشرَة. يطبع على حدِّ السّيف قُبلة تجعل من مهد الخطيئة للعشّاق قِبلة. يتصالح مع رَبّه ورُبّه. يضع سرّ الكون الذي لا يعرف أحدٌ اسمَه على طاولة أمامه ويرسُمَه فيرى اسمَه. يحوّل سرير الأسرِ أسرَّةَ أُسرَة. يحبُّ فيرى السّلاسل في أيدي الطّغاة وقد لَاقت لَهم فموتَهم تكبيل أيديهم لَا قتلهم.
بلا يا صديقي إنّني أعرف الحبّ جيّدًا وأفهمه، لكنّني مكسورٌ كأيّ عاشقٍ في مدينة الكره هذه. أحاول جاهدًا إيجاد مساحةٍ آمنةٍ لقلبي بين فكّيها. مدينةٌ كهذه لا تليق بالعشّاق، هم غرباءٌ فيها ثقيلون وغير مرغوبٍ فيهم، مستهدفون دومًا ومدعاة سخريّة ورجم وأحكام.
سأستمرّ بالرّغم من كلّ العقبات. سأحاول وأفشل مرارًا وتكرارًا، لأنّ الحبّ الذي تقول أنّني لا أعرفه هو ما يدفعني دومًا إلى تكرار محاولاتي البائسة الخائبة هذه. لكن ما عساني افعل وأنا لا أملك بديلًا لقلبي عن هذا التّكرار سوى التحلّل في تراب الحرايق؟

تابعوا وأبحروا في سفينة كلماتكم أينما شئتم. أمّا أنا فسأحتفل الليلة وأسكر حتّى الصّباح. أخيرًا كتب أحدكم عن شيءٍ جميلٍ نعيشه! نعم، سأتغاضى عن تلك الخاتمة المخيّبة للآمال التي كسّر بها صاحبنا أسناننا الضّاحكة أو كاد، وأقول لنفسي وأردّد: لقد تكلّم أحدنا عن الحبّ! مهما قال عنه. صار مجرّد تفكيرنا بأمرٍ جميلٍ كهذا هجنة تستدعي الرّقص والاحتفال.

ترى من الذي أقنعكم أنّ الكتابة هي فعلٌ علاجيّ محضٌ للبؤساء؟ من الذي قال أنّ الكتابة تحلو بمقدار ما تحمله من حزنٍ وشقاءٍ وتنقله للقارئ؟ اكتفينا من أحزاننا خارج دفّات الكتب فلجأنا إليها كي نرتاح قليلًا لا كي تعطونا جرعات بؤسٍ إضافيّةٍ فيها. أنا أعرف عمّا تتحدثّون، لا أعرفه فقط بل أعيشه معكم لحظة بلحظة، أشعر بالثّقل فوق قلبي وأرى بعيني كلّ الأثقال الموضوعة على قلوب الذين أحبّهم، لكنّي لن أزيد الثّقل عليهم كما تفعلون أنتم، بل سأقاومه وأعمل على تخفيفه، بسلاحكم نفسه، بالكلمات. بدءًا من طفولتي حينما كنت صغير البيت، آخر العنقود كما يُقال، بكلّ ما تحمله هذه الصّفة من غنجٍ وتدليلٍ وفرَصٍ أكبر للمشاغبة والهروب من العقاب ووراثة الثّياب والكتب والألعاب..

- تقصد بكلّ ما تحمله هذه الصّفة من إهمال رجلٍ ملّ التربية وامرأةٍ تعبتها.

- كلّا أنت مخطئ، لقد كان أبي يحاول تعويض كلّ الأغلاط الّتي اقترفها بحقّ أخوتي معي لأنّه يعرف أنّها الفرصة والتجربة الأخيرة له كي يتعامل مع كائنٍ جديدٍ صغيرٍ لا يعرف شيئًا من هذا العالم، ورقة بيضاء يكتب عليها ما يشاء من قيمٍ ومبادئ وأفكارٍ ولغات، كالأرض الخصبة الطريّة الجاهزة لاحتضان أيّ شجرةٍ مثمرةٍ تزرعها فيها.

- ولماذا تضع حديثك هذا في إطار الإيجابيّات بثقة هكذا؟ كان يمكن لأبيك أن يوفّر على نفسه ويرسم صورة عنه على ورقةٍ عوضًا عن جلبك وتربيتك ورميك في هذا الأتون الحارق، لا؟ أو أن يحمل مرآة جيبٍ ينظر إلى وجهه فيها كلّما شعر بحنينٍ للأبوة. بربّك ما فائدة استمرار وتطوير جنسنا البشريّ برمّته إنّ كنّا نفوسًا خاوية تستقبل القيم والأفكار والعادات المفروضة عليها، وترث مفاتيح الحياة الّتي قرّرها أبوك كما قرّرها أبوه من قبله؟

- أضعه في إطار الإيجابيات لأنّني أعرف أنّني حصلت من أبي على قاعدة قيمٍ

وفهم متينة تكفيني لأرى وأميّز ما يجري من حولي. وهي ليّنةٌ أيضًا بحيث أبني عليها معتقداتي وآرائي بحريّةٍ تامّة. أبقي منها ما يلائم إيماني ونظرتي لنفسي وللآخرين، وأهمل ما أعرف أنّه رجعيّ لا يلائم ظروف الحياة في هذا الزّمن. لا تخف يا عزيزي، الأمور أسهل بكثير ممّا تعتقد وتعقّد، تحرَّر من أحكامك ونظريّاتك الهدّامة هذه كي تنال قليلًا من الفرح في حياةٍ كلّما ذهبت ثانية واحدة منها، تذهب إلى غير رجعة.

- هل هذه نكتة؟! أنت تقصد قاعدة أفكارٍ وقيم دقّها أبوك في رأسك دقًّا كالمسمار، وأقنعك أنّك لو نزعتها ستحدث فجوة نازفة في رأسك وتموت وحيدًا متروكًا لا يمدُّ أحدٌ لك يد العون. لذلك كان كلّ ما هو خارج هذه المنظومة سرّيًا عندك، منذ أوّل سيكارةٍ شربتها حتّى آخر مشاركة فراشٍ لاهبةٍ مع أحد. تستعمل دائمًا معاييرك في السرّ وفي العلن معاييرَهم هُم مهما قلت عنها متخلّفة.

- هذا هراءٌ لا يعنيني الردّ عليه ومجاراتك لمجرّد ملئ صفحات كتابٍ مملٍّ كهذا.

- هراءٌ ها؟ الهراء هو أن تملأ الدّنيا تنظيرًا عن الحريّة والتقدّمية وضرورة تحطيم المقدّسات المزيّفة، ثم تسمّي خوفك من التدخين أمام أبيك احترامًا، أو تسمّي وضع يدك على رأسك عند التّكبير في الآذان بحضور المؤمنين مسايرة. الهراء هو عندما يكون بناء المجتمع المدنيّ الحرّ هدفًا تضعه نصب عينيك وتدفع بالنّاس صوبه ثمّ تكتب كتابك لدى شيخٍ سارقٍ وتوقّع له على ورقةٍ بيضاء وتفاصله بالسّعر ثمّ تنجز معاملات طلاقك في نفس المحكمة.

- سأنسحب من هذا اللغو حالًا وأتركك تفرّغ عقد نقصك في مكانٍ آخر.

- نعم. يستحسن أن تنسحب حالًا وتخلي الصّفحة لغيرك، علّنا نقرأ ما يفيدنا دون كذبٍ وادّعاءات.

- هاه! هل تقصد ذاك الحشّاش الأبله؟ بالفعل، هذا ما يليق بكم وبهذا الكتاب تمامًا، مخدّر الرّأس يتكلّم كي تضحكوا على بؤسه وغبائه. استمتعوا بغبائكم وغبائه واتركوا الفرح لأهل الفرح. سلامات.

- قل لي قبل أن تهرب كعادتك. إن نحن تركنا الفرح لأهله، ماذا سنفعل بالجّبن الّذي يغلّف قلبك أنت؟

- لا أدري. خذوه معكم إلى الحرايق.

٩

لم يعد هناك ضرورةٌ للتّعريف عن نفسي لكم، فأنا "الحشّاش الأبله" كما سمّاني ذاك المنفخ المهترئ. أبلهٌ بالطّبع بنظره ونظر كلّ السّفلة الذين وضعوا عقولهم طوعًا في غسّالةٍ أبديّةٍ تبرمها يمينًا وشمالًا حسب ما هو أفضل للنظام وأدواته. وأبلهٌ لأنني أراقب جنونكم هذّا وأنا مستلقٍ أبتسم بصمتٍ من صغر كلّ شيءٍ حولي، صمتٌ تسمّونه بلاهة لأنّكم تخافونه ولا تتقنونه، تعتقدونه جهلًا وضعفًا وقلّة إدراك، أمّا التحدّث فهو بنظركم بحدّ ذاته ذكاءٌ ورفعةٌ مهما قال المتحدّث من ترّهات، حرّك لسانِك في فمك عشوائيًّا وأصدر أيّ صوتٍ كي تنال صفة الفهيم صاحب الرأي. إنّ الكلام يعتبر من أسهل ما يمكن لغير الأخرس فعله.

أمّا المهزلة الأسوأ هي استعمال صفة الحشّاش لتحقيري وتوسيخ سمعتي بين النّاس، ولماذا؟ لأنّني أستهلكُ نبتة طبيعيّة وأنفخ دخانها في الهواء دون أن أؤذي أحدًا أو أسرقَه أو أقتله، نبتةٌ يحكى أنّها أقدم نبتةٍ على وجه الأرض. لا أعرف من قرّر هذا لكنّه ربّما سيقرّر يومًا ما أن يشتم ويسجن من يستهلك الخيار البلديّ مثلًا أو الكمّون الطبيعيّ عندما تحتكر الدولة تصريفه و تمسك سوقه السوداء وتقنع النّاس أنّه يذهب العقول ويؤدّي إلى الإدمان.

الحشيشةُ كيف الفقراء الرخيص يا صديقي، أمّا أنت بسفسطائيّتك ومعتقداتك الكاذبة كلّها مجرد ببغّاءٍ يردّد ما يسمعه من الأذن إلى الفم دون أن يفكّر فيه للحظةٍ أو يسأل عن معناه. لست معنيًّا بالدفاع عن نفسي أمام شخصٍ مثلك على كلّ حالٍ وصدقًا أقول إنّ رأيك بالموضوع هذا لا يهمني البتّة كما لا يهمّني تغييره، لكنّ الحديث مفتوحٌ الآن بيننا أمام القرّاء فاسمح لي أن أسألك و أسألهم بضعة أسئلةٍ كي تبحثوا عن إجاباتها بينكم و بين أنفسكم دون أن تعطوني أيّ إجاباتٍ بالضرورة. لم قد تمنع الدّولة زرعها وتدخينها؟ لم أجد حتّى الآن أيّة إجابةٍ مقنعةٍ على سؤالٍ بسيطٍ كهذا، ألأنّها تذهب العقول وتضعف تركيز مدخّنها وتفصله عن واقعه؟ إذا كانت هذه هي الحجّة فلتمنع الدولة إذا الحبَّ والصلاة والنوم وخُطَب الجمعة ونشرات الأخبار والتصوّف والموسيقى والحزن والإعلانات الرخّيصة في الشوارع وبرامج القذارة على شاشات التلفاز. كلّ هذا يفصل الإنسان عن واقعه ويرميه في عالمٍ متخيّل دون تركيز. لا أعرف كيف وضعت الدولة في رؤوسكم أنّ تدخين «المبروكة» اللطّيفة ورسم الأشكال

بدخانها يساوي السرقة والاغتصاب والقتل. الدولة تسرق وتنهب وتغتصب وتعتدي وتضرب وتبطش في شعبها دون رحمة وتتفنّن في تعذيب النّاس في المعتقلات والأقبية وترمي جيلًا كاملًا من غرباء المدينة من الشّرفات بسياساتها القاتلة لكنّها حريصةٌ على أمن المواطن وأمانه عندما يتعلّق الأمر بالحشيشة والتّحشيش.

إنّ الدولة بتجريم الحشيش وتلفه في مهده تريد الأفضل لتجّار المخدّرات يا أصحاب، فهي تاجر المخدّرات العالميّ الأكبر، وهنا لا أتحدّث عن نبتة الحشيشة المسكينة بل عن حبوب هلوسةٍ قاتلةٍ وأصنافٍ كيميائيةٍ مصنّعةٍ وكوكايين ومورفين معدّل ومليون سمٍّ تلبسه الدولة غطاءًا شرعيًّا.

أرى في وجهك الآن هذه النّظرة الغبيّة التّي ترسلها مشفقًا على حشّاشٍ يهذي معتقدًا أنّهُ يقول أعمق حقائق الكون لكنّني أبادلك الشفقة نفسها. الشفقةَ على إنسانٍ لا يستعمل عقله إلّا للتلقّي دون أن يحلّل أيّ تفصيلٍ من ملايين التفاصيل التي يراها بوضوحٍ أو أن يفهم العلاقات فيما بينها، مثل أنّ تلفَ المبروكة لا يؤدّي إلى خفض عرضها في السّوق بل إلى ارتفاع أسعارها محليًّا ودعم استيرادها من الخارج لتهريبها عبر المرافق الحكوميّة الرسميّة.

زد على ذلك أنّ هذا التلف يعتبر خدمة سحريّة للمخدّرات الثقيلة الّتي تفقد خصمها المنافس في السّوق وتجد الطريق السّهل لتلف خلايا عقول النّاس ما يضخّم ثروة المهرّبين والتجّار الكبار الذين يعملون تحت مظلّةٍ من نجوم الضبّاط من جهة، ويحرق من جهة أخرى أنفاس المزارعين الصغار الذين ينتظرون «زمطة الموسم» كي يؤمّنوا ما يقيت عيالهم في أيّام البرد. أليست المعادلة واضحة بعد؟

سأبتعد أكثر من ذلك معك وأعود إلى ذاكرة «الحرب العالميّة على تجارة المخدّرات» في مطلع التسعينات، أي قبل «الحرب العالمية على الإرهاب» بعد مجزرة نيويورك بكثير. في الحربين كان الهدف هو ضمان احتكار الولايات المتحدة وأصحابها للإرهاب والمخدّرات على حدّ سواء. أتذكرون ماذا فعلت دولتنا بهذا الخصوص؟ أطلقت برنامج دعم زراعيّ يقوم على تلف الحشيشة الكامل وتجريم زرعها و استخدامها من جهة، وتأمين مساعداتٍ ماديّة وزراعاتٍ بديلةٍ للمزارعين وأصحاب الأرض من جهةٍ أخرى. لم يكن هذا البرنامج سوى حلقةٍ من حلقات تأدية الطاعة وحسن سلوك الدولة أمام

المجتمع الدوليّ، الذي للمفارقة العجيبة جدًّا يشرّع زراعة الحشيشة ويقنّن استهلاكها في قوانينه الداخليّة.
اسمع يا هذا! الأبله هو من يعرف كلّ هذا ويراه ثمّ يستمرّ في تكرار هذه المعازف التافهة. الأبله هو من يصرّ على ربط لسانه بفم مذيعة الأخبار المربوط أصلًا بجيب مدير القناة، وهو يعرف أنّ الدولة لم تؤمّن أي زراعةٍ بديلةٍ وسرقت معظم المساعدات ولم ترسل للمزارعين سوى بضعة تفاهاتٍ كزراعة دوّار الشمس والورد الجوريّ للزينة والاستعراض، أو زراعة الشمندر السكّريّ ذي الكلفة الباهظة التي قد تصل إلى أكثر من خمسة أضعاف كلفة زراعة دونم مباركٍ واحدٍ من النبتة الشريفة، أو زراعة البطاطا التّي تشجّعها من جهة و تستوردٍ آلاف الأطنان بسعرٍ تنافسيّ رخيص من جهةٍ أخرى، ما يقتل كلّ محصول المزارعين في أرضه.
لا أقول أنّ دولتنا غبيّة ولا تعرف هذا كلّه، لكنّها أداةٌ بيد أسيادها تنفّذ ما يرضي الرجل الأبيض ولو كان تشريد ملايين النّاس وحرمانهم لقمة عيشهم وقتلهم بالرّصاص. لأنّ كلّ من فيها يعرف أن كلفة زراعة دونم واحدٍ من الحشيش ومردوده الماليّ لا يمكن مقارنته بأيّ دونم زراعيٍّ آخر لكنّها لاً تكتف بالمنع فقط، بل بقتل المزارعين في مداهماتٍ عسكريّة حاًقدةٍ لم أرها متوجّهة نحو الأرض المحتلّة جنوبًا ولا مرة.
أنت الأبله. تتعاطى لغة النظام ومفرداته وتدمنها، وهي بالمناسبة من أخطر أنواع المخدّرات وأشدّها فتكًا لخلايا الدّماغ، والدليل هو أنت.
لغة النظام التي تجد في قواميسها كلماتٍ عن التخوين والتجريم والتحريم والمداهمات والملاحقة والتهديد والسّجن لكلّ من يزرع المبروكة أو يستعملها، لكنّك لن تقرأ ولا مرّةٍ في هذه القواميس كلماتٍ عن خطّة بسيطة للدولة تنظّم فيها زراعة الحشيش كغيرها وتستفيد من تصديرها للدّول التي تعتبر استهلاكها قانونيًا. لن تجد أبدًا في هذه القواميس كلماتٍ عن فوائد زراعتها وكيفية الاستفادة منها لأغراض طبيّةٍ أو تصنيعيةٍ كما تفعل الدول التّي يتغنّى بذكائها نظامنا الغبي.
أشعر أنّك قد مللت هذا الحديث كلّه وتعتبره لغوًا وإطالة لا داعي لها، لا بأس، فأنا أعرف أنّ الكثير من القرّاء مسرورون الآن ويضحكون عليك. وأعرف أنّي لا أتحدّث فقط عن الشّتل والنبات، بل عن أهل قرى وبيوتٍ فيها من الطيبة والكرم ما يكفي الكون

كلّه يربّون حشيشاتهم بالشّبر والنّدر ويعرفون أنّها مصدر رزقهم الوحيد والأخير، لكنّهم بنظرك بلهاء وخارجون عن القانون لأنّهم يدافعون عن بقائهم حرفيًّا.
أتعلم؟ تبًا لك ولدول العالم كلّه وأنظمته كلّها، اتركنا بحالنا نحن التافهين الذين يصل سقف سلطنتنا إلى الضحك الهستيريّ وتسارع نبضات القلب فرحًا وتزايد شراهتنا للأكل، وَرِ فينا مجانين خارجين عن قانونٍ تافهٍ يمنع كلّ ذلك، لكن اسأل نفسك للحظةٍ واحدةٍ لماذا يسمح القانون نفسه شرب ما يشاء المواطن من الخمر ويسمّي الموت من تشمّع الكبد وحوادث السير والأفعال الجنونية الناجمة عنه قضاءًا وقدرًا؟
أشكرك بو ناصر على فتح المجال لي للتحدّث والإطالة بحريّةٍ هنا دون حسابات وحبالٍ وعيون مخبرين، أشكر الرفيق الصّادق على بذرته "الدونج" الطيّبة التّي تنطّقٍ الصخر، أشكركم أعزّائي القرّاء على وقتكم الثمين وابتساماتكم الهادئة، اسمحوا لي أن أنصرف لأدخّن سيجارة ما قبل النّوم وأرخيها على أمل عودةٍ قريبةٍ إن اضطرّ الأمر. أمّا أنت يا شبح المرايا التّافه الذي يشبه الزرافة، عد إلى رُشدِك، أو عُد إلى الحرايق.

١٠

اعذرني يا صاح، فأنا لا أملك مثل فصاحتك كي أقول ما قلتَه، لكنّني أصدّقه كلّه وأعرفه وأراه أمامي معادلاتٍ سهلةً بسيطة مفهومة دون جهدٍ لكنّني أجد تفسيرها للنّاس مهمّةً صعبة، لا بل أشعر أنّها مستحيلة أحيانًا.

لا أكاد ألفظ كلمتين ممّا أريد قوله حتّى أراهم يستهزؤون بي ويتغامزون فيما بينهم كاشفين عن بشاعة أسنانهم وشرر عيونهم. يتقاذفونني فيما بينهم كلعبةٍ مسلّية، ولم لا؟ فأنا الغريب عنهم وعن هذه المدينة والبلاد كلّها.

أنا الغريب الّذي لا أتحدّث لهجتهم ولا أحمل أوراقهم ولا ألبس ثيابهم ولا آكل طعامهم ولا أضحك لنكاتهم ولا أفهم تشبيهاتهم. خرجت من مدينتي بالغصب، رُميتُ هنا بالغصب، مُنعتُ من العمل بالغصب، نمتُ في الشّارع وفوق السّطوح بالغصب، خُدِّر دماغي بالغصب. وعندما اكتمل وعيي ورأيت بوضوحٍ تامّ كلّ ما يحصل لي حاولت الهروب من فم الموت أملًا بالحياة، فقُتِلتُ بالغصب. أقولها بالفم الملآن وليجلد الكون نفسه، أنا قُتلتُ ولم أنتحر.

لطالما شعرت أنني أعيش على ظهر سفينةٍ غريبة الأطوار، لا قويّة ولا خسعة هكذا ببساطة سفينة في بحر، والبحر مزاجيٌّ يقوى ويضعف بتطرّفٍ لدرجةٍ تجعل من قوّة السّفينة أو ضعفها تفصيلا تافها لا يُسمن ولا يغنِ من جوعٍ فبعض النّاس يهزمون المحيط بزورق نجاةٍ، و البعض الآخر يغرق ولو كان على متنٍ باخرةٍ فولاذية.

اجتمع الركّاب جميعهم مع الربّان وطاقم السّفينة ورجال الصيانة أمامي وصرخ أحدهم: "ارموا هذا الغريب الآن!". فكّرت قليلًا في القفز بالماء والهروب، لكن سرعان ما قفزَت الفكرة من رأسي، فأنا أخافُ الماء ولا أجيد السّباحة أصلًا.

قدّرت أنّ موتي محتومٌ إن قفزت لكنّ نجاتي إن قاومتهم أمرٌ ممكن ولو كان احتماله يشبه احتمال نجاة فيل نائم من رصاصة قنّاصٍ يقظٍ جدًّا. فقرّرتُ المقاومة. قاومت حتّى نفسي الأخير، حتّى في اللحظة الأخيرة التّي سبقت ارتطامي بحضن المدينة المسنّن. قاومت عبثًا لأنّني لم أكن أحتاج للحظّ ولا للفصاحة ولا للمال في هذه اللحظة، كلّ ما احتجته فعليًا كان صوتًا مختلفًا واحدًا يخرج من بين أصواتهم جميعًا لينبّههم أنّ الأمر ليس مجرد مزحة. لكنّي لم أسمعه إلّا بعد فوات الأوان. لم تلتقطني أيّ يدٍّ يومها فوق الأرض، لكنّ الأيادي كلّها تسابقت وتزاحمت لدفني تحتها.

لا تعتقد أنّني سأستغلّ الفرصة لأعبّر عن حزني وندمي على ما فعلت وتمنّي العودة، فمهما أكلت الظلمة والوحشة هنا من أحشائي تبقى أقلّ مضاضة من ظلمة ووحشة هذه المدينة القحبة.

أقولها دون أيّ خجلٍ أو شعورٍ بالذنب، فلم أخجل من مدينةٍ تبني أمجادها الباطونيّة على ظهور العمّال الغرباء نهارًا ثمّ توقفهم عراة على الحائط لتجلدهم إنّ تجوّلوا في شوارعها ليلًا؟ لِمَ أخجلُ من مدينةٍ ترمي بالغريب الفقيرِ من أعلى شاهقٍ فيها وتلفّ عنقه بألف حبلٍ وحبل حتّى بعد موته، ثمّ تنحني بكلّ ذلٍّ وقرفٍ لتلعق حذاء الغريب الثريّ وتعرض عليه ما يشاء من خدماتٍ ووسائل ترفيهٍ وراحة؟ لم قد أخجل من مدينةٍ سحبتني على غفلةٍ من ساحة الرّقص مُتَنَفَّسي الوحيد وضربتني حتّى الموت كي يحتلّ مكاني ذلك الأوروبيّ الغبيّ ذو البشرة الحمراء محاولًا التمايلَ ببلاهةٍ على أنغام أمّ كلثوم. لا يمكن لأيّ غريبٍ مثلي أن يرقص في هذه الساحة مجدّدًا قبل أن يخليها هذا الطوبوب الكريه.

افعلوا ما يحلو لكم. استمرّوا في المكابرة وترقيع القذارة هذه. بالغوا جدًّا في لحظات فرحكم وادفنوا لحظات الحزن في مهدها، أنتم أحياء. تجاهلوني وتصرّفوا كأنّكم لم تروني يومًا أو املأوا الدنيا باسمي وصوري وذكراي والأشعار المهداة لروحي المتعبة، لن يعني لي كلّ هذا شيئًا.

كلّ ما يعنيني الآن أن لا يقول أيّ أحدٍ منكم أنّني اخترت وأصبحت الآن مرتاحًا وفي مكانٍ أفضل، وإلّا فليختر هو إذا وينتقل إلى مكانٍ أفضل أو فليخرس للأبد لأنّه لا يعرفُ شيئًا عمّا اخترتَه وفي أيّ مكانٍ أنا الآن، لأنّه لا يملك أدنى فكرة عن الحرايق.

١١

في داخل كلّ رجلٍ منّا امرأةٌ يلجأ إليها عندما لا تتناسب انفعالاته وحركاته ومشاعره وردّات فعله مع الصّنم البائس الذي فرض عليه مجتمعه أن يكونه.
إن تحمّستُ يوما في رقصي يصرخون: مالك تَتَرقَوص مثل النّساء؟ إن أفلتت يوما ضحكة عالية من قلبي يصرخون: مالك تتقهقه مثل الحريم؟ إن بكيت يوما حزنًا أو فرحًا يستهجنون: يبكي كأنّه امرأة! إن انسحبتُ يومًا من معركةٍ خسارتي فيها مضمونة يقولون: هرب مثل أنثى. كأنّ مفهوم الرجولة في بلادنا مربوطٌ بعلاقةٍ عكسيّةٍ مع معنى الإنسان من جهةٍ، وبعلاقةٍ طرديّةٍ مع معنى الصّخرة من جهةٍ أخرى.
أعتقد أنّ عادة وأد البنات الجاهليّة لم تتوقّف حتّى يومنا هذا مهما نكروا وتلاعبوا بالكلمات، بل تحولّت من معناها الحرفيّ أي دفن البنت حيّة تحت التّراب قبل أن تكبر ويكبر عارها معها، إلى دفنها حيّة تحت ثقل عاداتٍ وتقاليد وأحكامٍ باليةٍ تخنقها وتؤدّي بها إلى الهلاك وتحشرها في صناديقَ ضيّقةٍ مرعبةٍ إن حاولتْ الخروج منها يومًا يطلق الشرف عليها النّار مزهوًّا يفتل شاربيه.
لن أدفن المرأة التي تسكن داخلي مهما أرادوا منّي ذلك، أصبحَت جزءًا منّي مثل كلّ الذين كتبوا في الفقرات السابقة. تأتي أحيانًا، تختبئ أحيانًا لكنّها لا تفارقني أبدًا. تنمو وتشيب معي يومًا بيوم، تفرحُ لفرحِي، تحزنُ لحزني، تخافُ لخوفي، وتحميني في أقسى لحظات انقطاع أنفاسي ليلًا. أسميتُها "رقيّة" على اسم جدّتي. فهي رقيقةٌ راقيةٌ لا يتناسب جمالها أبدًا مع معايير الجمال التي فرضها الوليد بن طلال وأشباهه على النّساء في بلادنا.
رقيّة مثلها مثل ملايين النساء في هذا الشرق المظلم، لم تعرف سوى البؤس منذ أن أبصرت النّور. نظرة أبيها الأولى نحوها كانت مليئة بالخيبة والحزن. لم يكن ينظر في وجهها يومها بل في أسفل بطنها الصغير، وبقي يتعامل معها كأنّها نحسٌ مفروضٌ عليه حتّى حدث ما حدث وخبّأتُ روحها في صدري كي لا تُدفن مع جسدها في التراب.
كَبُرَت مثل عصفورٍ وُلِدَ وحيدًا في قفصٍ فاعتاد كره السماء وجناحيه بدل أن يكره قضبان سجنه الذي إن فتح بابه يومًا تراه يتكوّر في الزاوية مرعوبًا من الخروج.
اعتادت الذلّ كما تعتاد أنت على الشّهيق والزّفير والتّرميش اللاإراديّ لعيونك. في شعرها البنيّ ضفيرةٌ رفيعةٌ تكاد عقدها تختصر كلّ التناقضات الخانقة والأحكام

القاتلة والسّمات المذلّة التي أصابتها كونها لم تولد بعضوٍ ذكريٍّ يتحرّك بين فخديها فيمنحها الأفضليّة في الدنيا والآخرة. دفعت رقيّة حياتها وحياة ابنتها ثمنًا لخطأٍ ارتكبه الله بحقّهما يوم صوّرهما.

تزوّجَت على عجلٍ كبضاعةٍ اقترب انتهاء تاريخ صلاحيّتها، لكنّها كانت مسرورة يومها لأنّها لا تعرف بوجود صورةٍ أخرى للزواج. لأنّها تربّت أنّ الحبّ حرام، والعزوبية عار، والاختيار ممنوع، والرفض مستحيل.

لم تكن تمتلك من الوعي ومصادره ما يمكنّها من فهم مجتمعٍ مريضٍ متناقضٍ يمجّد أنوثتها وأمومتها وعطاءها ويغرقها بمديح صبرها و حنيّتها، لكنّه يهين الرجل الضعيف، غير المنتج، أو حتّى الخجول بتشبيهه بها. مجتمعٌ يحتفل بعيدها يومًا واحدًا في السنة، ويرميها باقي الأيام بسهامه السامّة: عورةٌ، غوايةٌ، شرٌّ، جاهلةٌ، ضعيفةٌ، قليلة عقلٍ ودين..

كآلةٍ أصليّةٍ هي، لا يتوقّف إنتاجها وتتوارثها الأيدي جيلًا بعد جيلٍ من الأب إلى الأخ فالزوج ثمّ الابن قبل أن تصبح عبدة لهم جميعًا. كلّما سَمعَت أو قَرَأَت في مكانٍ ما عن كلماتٍ مثل الحريّة والكيان والإرادة والطموح والمحاولة، تزمّ شفتيها محتارة تحاول تخيّل معنى قريبٍ لها.

لم تعرف أنّ صفة "سندِ الزوج" تعني الوعاء الذي سيفرغ فيه الأخير ذلّه اليوميّ خارج البيت ويعوّض فيه عن المهانة التي تلحق به من صاحب العمل والمدير والدّولة والشّرطيّ والثريّ والأب. لم تكن تعرف أنّ تشجيعها على الزواج المبكر كان فقط بهدف ترويض حيوانٍ جنسيٍّ إن لم يمارس الجنس معها في بيته سيزني مع غيرها خارجه وتتحمّل هي المسؤولية الكاملة. لا تعلم مشكلتها مع من وماذا تحديدًا، فَهُم الذين صنعوها على هذا الشكل، قَولَبُوها في قالب الضّعف والمهانة والعار، ثمّ تنَكّروا لما صنعت أيديهم وشتموها لأنّها تمتلك صفات هم زرعوها فيها.

منعوها من العلم منذ الصّغر، ثمّ عيّبوها بالجّهل. حبسوها في قفصٍ قضبانه من المكانس والصابون والمسلسلات التافهة، ثمّ عيّبوها بقلّة معرفتها بحقيقة ما يدور في العالم الخارجيّ. ربطوها بالسرّير من رحمها، ثمّ عيّبوها أنّها لا تفيد بشيءٍ خارجه. حتّى في السرير هي تقوم بالمطلوب منها كما يحلو لهم هم فقط، على

توقيتهم وطريقتهم مهما كانت كريهة. منعوها منذ صغرها من المشاركة في أحاديث الرّجال والكبار ثمّ عيّبوها أنّها غير قادرةٍ على نطق كلام مفيدٍ بين النّاس. منعوها من تحمّل المسؤولية وهي صغيرة ثمّ عيّبوها لاحقًا أنّها ضعيفةٌ تحتاج من يحميها ويستر عليها. منعوها من حمل الأثقال ثمّ عيّبوها بضعف عضلاتها وقلّة قدرتها على التحمّل. إنّ حقّقت أيّ إنجازٍ بسيطٍ يوما سيسحبون منها أنوثتها ويصفونها بحماسٍ بأنها "أخت الرجال" لأنّ المرأة لا تنجز بنظرهم، وإن حدث خللٌ كهذا يردّون الأمور إلى نصابها الذكوريّ سريعًا.

دائمًا أفكّرُ أنّ رقيّة ومن مثلها من النّساء يشكّلن مركز قهر الكون كلّه. كونٌ يعيش رجاله بموتهنّ، ويحقّقون ذاتهم بسحقهنّ، وينالون صفة البطولة والطهارة بتعذيبهنّ وطحن عظامهنّ. يعشن كالأشياء المغبّرة المرميّة تحت الكنبة كي تُستَعمل مرة في السنّة.

لا يفقد الرّجال عذريّتهم فينكحون ما طاب لهم من النّساء قبل أن يشترطوا عليها أن تكون عذراء كيّ تطابق مواصفاتهم للزّوجة الشّريفة الصالحة، وإن لم تكن كذلك ستتحالف قوانين البيت والعشيرة والدولة والأديان كلّها كي ترجمها وتجلدها وتغسل عارها بدمائها. ثمّ يصفونها بعد ذلك كلّه بقذارةٍ بأنّها نبع الحنان ورمز التضحية.

أعرف الكثيرات ممّن تربّين على الحريّة في بيوتهنّ أو انتزَعنها غصبًا، يَدرُسن ويعمَلن ويُنتِجن ويصرفن من رواتبهنّ، يَسكُنَّ في بيوتٍ اختَرنها، يلبِسنَ ويأكُلنَ ويشربن ما يحلو لهنّ، يذهَبن أينما شئنَ في أي وقت يُرِدنَ. ورغم كلّ ذلك يشكين من ثُقل ذكوريّة مجتمعنا وخنقه الدائم لهنّ كلّ يومٍ بألف طريقة.

بقدر ما أفرح وأرى فيهنّ أملًا في تحرّر الأجيال القادمة من البنات، أحزنُ على رقيّة الّتي تراكم قهرها أمامها كجدارٍ عازل، جدارٍ يمنعها من معرفة وجود احتمالاتٍ أخرى للعيش أو حتّى من تصوّر أنّ أمورًا كهذه تحدث خارج القبّة الفولاذية التي تحيط بها.

لم ترَ رقيّة المدينة إلى أن أتى ذلك اليوم المشؤوم، يوم ولادة ابنتها الجميلة دُنيا حين اضطُرّ زوجها لاصطحابها مرغمًا لمستشفى العاصمة نظرًا لخطورة وضعها الصحيّ وعجز مشافي الرّيف عن تحمّل المسؤولية.

نظرت يومها متعجّبة في عيون الدّكتورة المشعّة التي أدخلت الطفلة الهادئة للمرّة الأولى إلى غرفتها. دكتورة؟! لم تعرف رقيّة أنّ تاء التأنيث يمكنها التمادي بهذا القدر. نظرت إلى الوجه الملائكيّ النائم بسلام، ثمّ إلى وجه زوجها فرأته متجهّمًا يحاول تصنّع بسمةٍ باهتةٍ تعرف أنّ ما سيأتي بعدها لا يبشّر بالخير أبدًا.
طلبت منهم الخروج فوافقوا بعد عناء. خرج الرّجل بمشيةٍ متثاقلةٍ يجرّ قدميه بينما خرجت الدكتورة بخفّةٍ وابتسامةٍ عريضةٍ محاولة شرح الموقف العاطفيّ للزوج: "لا يمكنك أبدًا أن تتخيّل ما يدور في رأس زوجتك الآن"
لم تمرّ ثوانٍ قليلةٍ حتّى دوّى صراخ عالٍ داخل المستشفى وخارجها. حضنت المرأة الدنيا النائمةً بيديها، خبّأت رأسها في العنق وقفزت من شبّاك المستشفى العالي.
يوم العزاء نظر النّاس إلى وجه الزّوج المصدوم بشفقةٍ بالغةٍ، "صبّر الله قلبه كيف تحمل المسكين العيش مع هذه المجنونة كلّ هذا الوقت". بينما كان السؤال الذي يدوي في رأسه كالدوّامة: "والآن لمن سأقطع تذكرة جديدة إلى الحرايق؟"

- قال أحد الفلاسفة يومًا قبل أن نولد نحن أننا نتعلّم من التاريخ أنّه يستحيل على البشر التعلّم من التاريخ. هل يعني لك هذا القول شيئًا الآن؟

- طبعًا يعني لي الكثير.. تسأل كأنّك لا تعرف، كأنّنا لم نناقش هذه الفكرة ألف مرّةٍ سويّة. كأنّها ليست هي نفس الجملة التي أردت أن تقتبس منها في صفحة الكتاب الأولى.

- بلى أعرف هذا جيّدًا لا تقلق، لكنّني أسأل كي أحاول فهم ومعرفة ما يدور في رأسك من دواماتٍ وأفكارٍ كلّ الوقت عن كيفيّة القتال ولا نهائيّة احتمالات المواجهة وميادينها، عن قدرة الإنسان المهمّش دومًا على ضرب ضربته من مكانٍ خفيٍّ عن العيون بخفّة.

ماذا تراك تفعل تجاه هذه الأفكار؟ تنتظر يائسًا موت أحدنا لتنعيه بأدبٍ ولغةٍ متينةٍ بأحرفٍ تستعملها نفسها بعد دقائق لكتابة تدوينةٍ مضحكة، ثمّ تذيب جثّته في جسدك وتناقضاته في تناقضاتك التي لا تنتهي كي تعود إلى الانتظار من جديد. لماذا تفعل كلّ ذلك؟ أسألك بنيّةٍ حسنةٍ صدقًا، إلى متى ستستمر بكلّ هذا؟

- وهل تملك أنت أو أنا أو أيّ أحدٍ من هؤلاء بديلًا عن الانتظار؟ ما أسهل أن يدوس الإنسان على دماء الآخرين ويفشخ فوق قبورهم دون أيّ شعورٍ بالذنب أو الشفقة، دون أن يتذكّر أنّ الدور قادمٌ عليه لا محالة.

لقد تعبتُ من المكابرة على الحزن والألم أكثر من تعبَي منهما، تعبت لعبة تحدّي الموت الدائم ومقاومته دون طائل، تعبت مقارعتي العبثيّة لمصيرٍ محتومٍ لا مهرب منه يا صديقي. كلّ ما أريده الآن هو أن أتنفّس لساعةٍ واحدةٍ نفسًا طبيعيًا صحيًّا يردّني إلى ذاتي ويذكّرني بها. أحيانًا يكون ثقل المقاومة البائسة المستمرّة كلّ الوقت للظلم أقسى بكثيرٍ من ثقل الظلم نفسه عليك. فهي لن تجرّ سوى الهزائم والخيبات لقلبٍ شبعها. لقلبٍ يحتاج ربّما لدقائق قليلةٍ من الاستسلام والاعتراف كي يعاد كلّ شيءٍ إلى مكانه من جديد. انزع هذه العبسة عن وجهك فأنا أيضًا أكلّمك بنيّةٍ حسنة، لكنّ الحياة وقحةٌ لهذا الحدّ ولن نصمد بوجهها إلّا إن تواقحنا مثلها.

- أنت محقٌّ فعلا فيما يتعلّق بالوقاحة، لأنّني لا أجد توصيفًا أدقّ للاستسلام والاعتراف بعد صفعة الحياة الأولى على وجهك، للانهزام والرّغبة بالانسحاب في نفس اللحظة التي تكتشف فيها صعوبة الرّحلة ومخاطرها. هذا مخزٍ بحقّ.

- أنت تشبه من يجلس في صالون بيته الدّافئ بعد العشاء على كنبته وحوله زوجته وأطفاله، يحدثهم عن حقارة سجينٍ يعرفه لأنّه اعترف تحت ضغط السّياط و جلسات الكهرباء والتعذيب اليوميّ علًى مدار السّاعة. صدّقني إنّ رغبة السّجين هذا في الحصول على دقائق قليلةٍ من الرّاحة في سجنه تساوي عنده آراء ملايين أصحاب المبادئ اللمّاعة مثلك في بيوتهم، ربّما تكون هذه الدقائق فرصته للانطلاق برحلة صمودٍ جديدة.
- دقائقٌ قليلة ها؟ وماذا سيبقى لك بعدها؟ الهزيمة فقط ولا شيء سوى الهزيمة والعار وجلد الذات.
إنّ مجرّد القرار بالمقاومة هو انتصارٌ قائمٌ بذاته، إنّ مقاومة ما تظنّه لا يقاوم هي في حدّ ذاتها انتصار لوجودك وحقّك بالبقاء ولقيمتك ولو أدّى خيارك إلى فنائك الماديّ أو الجسديّ ستخلّد قيمة أبديّة في التضحية والبسالة والعزّة. فالاستسلام الذليل فناءٌ معنويٌّ أقسى بكثيرٍ من فناء الجسد بكرامةٍ وجبينٍ عالٍ.
كنت أتمنّى مثلك أنني ولدت في بلادٍ محترمةٍ ما غيرً هذي البلاد، حيث لا يعرف السّكان أنّ الكهرباء أو الماء تُقطَعَان، حيث تخصّص الدولة معاشاتٍ للمعوّقين والعجزة والعاطلين عن العمل إراديًّا أم لا، حيث يَنسى النّاس وجود العسكر والأسلحة، حيث نصف الشّعب لا يعرف اسم رئيس حكومته ولا وزرائها، حيث الانتماء الدينيّ تفصيلٌ لا يعني إلّا صاحبه، حيث الحبّ خيارٌ حرٌّ مثل الإيمان والإلحاد والإنجاب والثّقافة والتشاؤم والتفاؤل.. هناك حيث البيوت أرضيّةٌ لها حديقة وقبو يدخلها الضوء والهواء كلّ النّهار..أحلامٌ بسيطةٌ هي نعم، مسكينٌ أنا لأنّني أتخيّل الجنّة بتفاصيل تافهةٍ كهذه. لكن هذا قدرنا يا صاح، أن نولد في ساحة المعركة ونموت فيها، بخيارين لا ثالث لهما، إمّا العيش ذلًّا أو الموت بكرامة.
- ألا يمكنك أن ترى احتمالاتٍ أخرى بين هذين الاحتماليين الدمويّين؟ ألم يعد هناك مكانٌ للحياة في معادلاتك ونظريّاتك الّتي لا تنتهي في الحرب والمواجهة؟ ألم تملّ لعبة تحويل الهزائم والمذابح إلى انتصاراتٍ وهميّةٍ مغطّسةٍ بشعاراتٍ برّاقةٍ وكتابة معلّقاتٍ عن شهامة وعزّة وانتصار الطفل الأعزل على الطائرة الحربيّة الّتي هدّت البيت على رأسه ورأس أهله؟ لقد مزّقت الطّائرة هذه أحشاءه الصّغيرة ونثرتها فوق رؤوسنا جميعًا.

كي يأتي من مثلك ليقول أنّ الطّفل قد مات بكرامة وأنّ حذاءه الصّغير سيكون حتفهم لا مناص. كلّا يا شاعر الشّعراء! حذاؤه الصّغير هّذا هو مجرّد حذاء صغير سيُرمَى بالقمامة مع قطعِ صغيرةٍ من لحمه الطريّ. طفلٌ قتل سدى وطحنت عظامه سدى. طفلٌ لأم وأبٍ وأخوةٍ خسروه كي تربح أنت في حربك جورًا وبهتانًا.
- أنت تعرف أنّ منطقًا كهذا يشكّل بداية الاستسلام وتبرير الخيانات، لا؟ بل منطق تبرير العمالة وتلوينها بالمسكنة والإنسانيّة. تشكيكٌ في جدوى كلّ ما حقّقته سابقًا في حياتك، تشكيكٌ في حقّك بالوجود، وتأكيدٌ على عجزك وضعفك وقلّة حيلتك الآن، ثمّ تقديم أطروحةٍ يائسةٍ للشّحاذة عن كوننا نسير بخطى مرسومة نحو الهزيمة النّكراء إن قاتلنا كمقدمّةٍ لقرار الانسحاب والاستسلام دون أي ردّة فعلٍ كأنّك نعجةٌ على باب المسلخ لا حول لها ولا قوّة.
- أشكرك جزيل الشّكر. ما أعظمك! هذا ما أعنيه تمامًا وأنت لا تحاججني به. نحن كنعاجٍ في مسلخٍ كبيرٍ يديره وحشٌ لا يَرحم ولا يُهزم، يضربنا دائمًا في الخاصرة الأطرى وينتقي أطهر الملائكة منّا وأنقاها، فيحزن النّاجون منّا ويرثون من رحل، رغم اعتيادهم وقرارهم بالتوقّف عن الرّثاء والنعي اليوميّ في كلّ مرّةٍ جديدة، ومعرفتهم العميقة أنّ الصمت واجبٌ في لحظاتٍ كهذه احترامًا لروح من رحل ومأساة من بقي خلفه، لكنّهم يكتبون خوفًا من تورّم الكلمات في صدورهم وانفجارها كما تعرف، هذا كلّ ما يملكونه.
يصلون ليلهم بنهارهم في التذكّر والحزن والبكاء ومراجعة الصّور والرسائل القديمة ولعن الكون كلّه. يملأون الدّنيا بالصراخ والنعوات ولعن المسلخ وجلّاده الأكبر. يرخون الحبل قليلًا لأمراضهم وكوابيسهم كي تسرح وتمرح كما يحلو لها. ثمّ يعودون بعد كلّ هذا الضّجيج إلى لوم واقعهم. نعاجٌ تؤدّي مهمّتها الوحيدة بدقّةٍ وانتظام شديدين، مهمّة انتظار الدور في المذبح.
- أراك فرحت بتوصيف النّعجة! ظننت أنّ كلمة كهذه ستوقظ دماغك قليلًا. أرى أنّك مستمتع على باب المسلخ والضّحكة تملأ وجهك وكأّنه إعلان تبريكٍ بعيد الأضحى. يا لغبائك، تنسحب بالرّغم من معرفتك بحتميّة الصّراع بمواجهة وحشٍ لا يرحم، سيقضي عليك عاجلًا أم آجلًا طالما أنّك تلبس قناع الخروف الغبيّ هذا. وبدل أن ترمي

القناع في وجهه وتقف أمامه صلبًا كالفولاذ، تتمسّك به وتنتظر دورك بذلّ. هل سمعت يومًا بكلمة "كرامة"؟

- سمعت بها لكنّني عاجزٌ عن رؤيتها فالكهرباء مقطوعةٌ في بيتي دومًا. وإن أتت، سأجد بيني وبين الكرامة اثنين وعشرين جدار فصلٍ عال، ما حاجتي بها إن كانت ستقودني إلى الموت المرعب في قبوٍ للتعذيب أو تحت جنازير الدبابات؟ ماذا ستفيدني شعاراتك حين يلتصق سقف بيتي بأرضيّته وأنا مسحوقٌ بينهما؟ هل ستأتي في حفل التأبين للتحدث عن شهامتي وتضحيتي؟ اللعنة عليك وعلى تضحيتي. لا أريد أن أضحّي بشيئٍ آخر، لم أعد أملك ما أضحّي به أصلًا. لأجل من وماذا أعيش هنا؟ ولأجل من سأموت؟ وما شأني بكلّ هذه المعارك والحروب والضّجيج؟ لم أعد أريد شيئًا من كلّ ذلك، أريد فقط القليل من الهواء غير المحمّل بروائح الجثث والمازوت. تحدّثني عن بساطة أحلامك بالسّكن في بلادٍ محترمةٍ تضمن حريّتك؟ أحدّثك عن حلمي بالحصول على قليلٍ من الهواء فحسب.. إن كان هذا هو حلمي في الأرض نفسها التي يمتلك فيها طفلٌ تافهٌ بلادًا بأكملها قبل أن يمتلك أسنانًا في فمه، فلا يليق بي سوى الموت مذلولًا مكفنًّا بقماشٍ حقيرٍ خطّت عليه عليه شعاراتٌ عن الشهامة والعزّة. حقير.

- ميؤوسٌ من حالتك أنت. توقّف عن الكتابة حالًا وانصرف إلى أمرٍ آخرٍ يفيدك ويفيد النّاس. لقد بقي قليلٌ من الأمل في بعض القلوب فلا تحرم نفسك وتحرمنا منه. أنت تسير بمنطقك القاتم بخطى ثابتة نحو انتحارٍ محتوم! وهنا لا أتحدّث عن الانتحار المعنوي. لقد بدأت سوداويتك تأخذ شكلًا مرضيًا لا يؤدّي سوى إلى هلاكك! ارحم روحك قليلًا وأشفق عليها!

- أنا من يجب عليه أن يشفق على نفسه؟ ومن يقول لي هذا؟ أنت وهلاكك الحتميّ ومفاخرتك به في خياراتك، والأسوأ من ذلك تجميلك للموت والهزيمة وتطريزك للذلّ بالألوان. تصفني بوقاحةٍ بالانهزاميّة والخيانة كي تقدّم بديلك اللامع الذّي يعبق بروائح الدمّ والموت والحروب التي لا تنتهي. حربٌ عبثيّةٌ أقنعت نفسك أنّك منتصرٌ فيها مهما كانت النتائج. أنت تخيّرني بين العيش بذلٍّ أو الموت بذلّ، مهما تشاطرت بالضحك على النّاس. هل تعلم ماذا أيضًا؟ الآن تمامًا وفي نفس الوقت الذّي أكتب فيه هذا الكلام السّوداويّ الانتحاريّ حسبما تصفه. حسمت قراري بتقديم استقالتي

من عملي في الشّركة التّي يثقل روحي غدًا والانطلاق مجدّدًا من الصّفر. الصّفر الّذي تخافه أنت وأمثالك ويملؤكم رعبًا. لم أفكّر كثيرًا بالأمر. استيقظتُ صباحًا، غسلت وجهي وأسناني وشربت قهوتي الصّباحيّة بهدوء على غير عادةٍ واتّصلت بالمدير واستقلت. جُنّ جنونه ورفض استقالتي بحنقٍ وحذّرني أنّ القانون يمنعني من ترك العمل دون ترك إنذارٍ قبل شهر، أجبته مبتسمًا: " لايمكنني الاستمرار ليومٍ واحدٍ، قم بما تراه مناسبًا" وعدت إلى فراشي على غير عادة.

سأستيقظ قريبًا من هذه النّومة وأبدأ رحلة البحث الجديدة عن عملٍ يؤمّن لي راتبًا يكفيني لدفع إيجار بيتي وفواتيره آخر الشهر دون أن تطحن روحي بالضّرورة. على الأغلب لن يكون الأمر بهذه السّهولة. ماذا إذًا؟ فقدان المال آخر الشّهر ليس أبدًا أسوأ من فقدان حريّتنا واحترامنا لأنفسنا في الشّهر كلّه. ربّما سينتهي بي الأمر شحّاذًا في الشّارع لا أعلم. لكنّني سأكون حينها شحّاذًا حيًّا وليس عتّالًا ميتًا لا فرق بين عظامه وجلده وبين تراب وشواهد الحرايق.

١٣

أرجو أن تتحمّلوني فقد اختلطت عليّ الأمور قليلًا، ربّما بسبب هذه الويسكي الرديئة التّي أشربها بكثرة دون أن ينتهي بي الأمر كما تحدّث ذاك السّارد تائهًا في الشوارع أبحث عمن أنشله أو أغتصبه، أو أن أنتهي بعد الكأس الخامسة جثّة هامدة في سيارةٍ مطحونةٍ على قارعة الأوتستراد السّريع.
أخي المدخّن، حدّد لي لبَّ مشكلتك بربّك. هل هو منع الحشيش أم تشريع الكحول؟ كلّما أردت الدّفاع عن موقفك تستعملني كمثالٍ عن الرّخص والبشاعة الحقيقيّة. ابتعد عنّي، دعني مع خمرتي بسلام وعالج مشاكلك مع نظامك بعيدًا من هنا. هنا لا وجود للنّكد، خاصة إن أتى من شخصٍ مثلك يعرف جيّدًا من أين يؤكل الرأس.
أتعرفون؟ ربّما هي ليست رديئة بهذا القدر. أعتقد أنّ طرف الصّداع هذا ناتجٌ عن قلّة النّوم فقط. لكنّ الملعونة هذه أخذت دماغي إلى مكانٍ بعيدٍ قليلًا عمّا تتحدثّون عنه. أفكّر بأولئك الّذين يتهمّوننا بالالتصاق بواقعنا وتقصيرنا في عمليّة تغييره.
أو طيّب لحظة! أريد أن أرتّب أفكاري عن جديد. بلى هذه الويسكي رديئةٌ جدًّا. مشكلتي ليست مع من يملك أطنان المال، بلى معه، لكنّ امتلاك المال غير موجودٍ في عمق المسألة، لا مشكلة لديّ مثلًا مع ثروة مؤسّس موقع فايسبوك بل أدعمها وأضخّمها عبر تصفحّي الموقع وتفاعلي معه وتلقّي إعلاناته لساعاتٍ طويلةٍ كلّ يوم كلّ اليوم. لكنّ مشكلتي هي عندما تأتينا الدّعوة إلى الصّبر والتحمّل والعضّ على الجراح من المنافخ المذكورين مثلًا، أو مع المتضامنين مع الفقراء في أحزمة البؤس ويدّعون تمثيله ومساندة قضاياه من أعلى قمّة في جبال الألب. أما آن لهؤلاء أن يصمتوا بعد؟ أن يتركوا الفقر بحاله ونحن بحالنا؟ أحيانًا أزيد من الشَّرب لتختفي أصواتهم في رأسي فتعلو أكثر! لا، لم يحدث هذا ولا مرّة.
يا أخي لم تريدني أن أكتب بهذه الطّريقة الملتوية؟ ضاع القارئ الآن بين السّطور وبدأ بالتأفّف منّي ومنك وبتقدير عدد ما تبقّى من الصّفحات. أتظنّه سعيدًا الآن ويُرجع التشتّت وضعف الصّياغة إلى سُكري؟ لست سكرانًا وإن سكرت فحديثي عندها سيضبط بعكس ما تتخيّل. دعني قليلًا. أمّا أنتم، سأرمي ما برأسي عليكم. من أقنعكم أنّنا نهوى البؤسَ ونعشقه ونتغزّل بتفاصيله كأنّنا محظوظون به؟ هل برأيكم أنّ العتّال الذي يتعب في عمله الشّاق يكره أن يتعب من الرّقص مثلًا؟

أتظنّوننا نكرهُ الفرح؟ أيؤلمنا الضّحك؟ هل تعني معركتنا مع سكان طوابق الحياة العليا أنّنا نريد البقاء في ملاجئها؟ أتظنّوننا حميرًا كي نفرح بالمأساة؟ هل تعتقدون أنّ الطفّار يسكنون الجبال والجرود والمغاور لأنهم يكرهون بيوتهم والبقاء جنب أحبّتهم؟

ليست مُتعة يا قوم أن نعيد حساب ما تبقّى معنا من مالٍ كلّما اشترينا شيئًا مهما كان ثمنه، ولا هي نوعٌ من الحمية الغذائية عندما نتوقّفُ فجأة عن تناول الطّعام ونردّه لمكانه. لا يُؤذي بطوننا الشبع ولا يُمرض عيوننا النّوم العميق، ولسنا نجاري الموضة عندما يخرج إصبع قدمنا الكبير من جواربنا الممزّقة، ولا هي هواية لنا أن نتقاسم سعر ربطة الخبز مع جيراننا وتقسيمها حصّتين في الواحدة أربع أرغفةٍ ونصف، ثمّ نحاول أخذ النّصف الأكبر بقليل، ولا نتغنّى ونفاخر بالخبزة والزيتونة عند الإفطار وتطبيق معايير العدالة بجوع أطفالنا في العشاء. ليست قلّة تقديرٍ منّا أن نفضلّ السّكن في جهنّم على أن نسكن في هذه البلاد.

أليس غباءً ووقاحة أن تعتقدوا أنّ أي إنسانٍ في العالم كان يحلم أن يكون ناطقًا بلسان المحرومين كارهًا لنصف النّاس ومكروهًا من نصفهم الآخر؟ هل هي خيانةٌ لجلدنا إن حلمنا يوما أن نغفو على فراشٍ دافئٍ غفوة مريحة فحسب أو أن نهدي أمّنا الوحيدة هديّة دون مناسبة تفرضها علينا روزنامة الواجبات؟

أوفّ! سامحيني صغيرتي لأنّني وصفتك بالرديئة، إلى أين أخذتيني؟ أشعر أنّني أتحدّث منذ سبع قرونٍ متواصلة. سأحاول الاختصار، عندما تقول أنّ المال قذرٌ وهو يملي فمك، سأسحبه من زلعومك بالقوّة وسيكون ذلك لمصلحتك الخاصّة. يعزّ عليّ أن يكون فمك مليئًا بالقذارات.

والآن، أودّ أن أستغلّ الفرصة قبل أن أختم لأوجّه رسالة إلى مولانا سماحة الشّيخ ردًّا على ما قاله أو جَعَرَه يوم الجمعة الفائت في خطبته عن «التطبيع مع الحرام». تحدّث حينها عن خطورة تقبّل رؤية شباب اليوم يشربون الخمر علنًا في الشّوارع والمقاهي ويفاخرون بصورهم مع الزُّجاجات الضّخمة الفارغة، وكدت أن أفقد أذنيّ حين صرخ شبه باكٍ: «شارب الخمر ليس منّا، لو لمست يدي الخمرة يوما سأقطعها!».

مولانا، حارتنا العشوائيّة ضيّقة و نحن نعرف بعضنا البعض جيّدًا، ويمكن لكلّ سكّانها

أن يروا منزلك الفخم المبنيّ مضاءًا بكلّ غرفه الواسعة بوقاحةٍ بينما نسهر نحن على أضواء القّداحات والشّموع في غرفةٍ واحدةٍ نقسمها بالستائر فنتخيّلها غرفتين ولا نجرؤ على فتح شبّاكنا الوحيد كي لا يستعمرنا البعّوض أو تخنقنا روائح نفايات الشّارع القذرة ويصرعنا هديره الذي لا يصل إلى ترّاسك الواسع.

يومها لم يزعجني ما قلته عن شرب الخمرة وكأنّها رذيلة الرّذائل في الكون بقدر ما أزعجني صراخك.

ما بك مولانا؟ تمالك أعصابك. قُل إنّ عبدًا يحاول النّوم بعد تعب ساعاتٍ أمضاها يبحث عبثًا عن عملٍ في المعامل والمحلّات ولا تفيده في بحثه أيّ غزوة من غزوات المسلمين ولا يعطيه امتناعه عن شرب الخمرة أيّ أفضليّة.

لا أطلب منك أيّ شفقةٍ أو مساعدة. أطلب منك أن تخجل بما تقوله وتستغبي به أولئك المساكين. توقّف عن استغلال حاجتهم لمخلّصٍ ما يعطيهم القشّة التي تمنعهم من الغرق أو تُجمّله بعيونهم.

زرتُ المسجد الذي تؤمّه مراتٍ عديدة سابقًا كي أفسح المجال لأمّي أن تنظّف الغرفة دون تذمّر من وجودي الدائم بين جدرانها، لم أسمع سوى الهذيان عن عذاب القبر وعورات النساء وشدّة عذاب من يغترّ بالمال ومتاع الدّنيا الفانية، وأكثر من ذلك ضحكتُ كثيرًا عند حديثك عن قرب هلاك المجتمع الأوروبيّ الغارق في الفساد والزّنى والطغيان والتكبر على الله.

اخجل يا مولانا كما أمرك الله أن تفعل، واستتر عندما تتحدّث عن الذنوب أمام من أَتوا من مستنقعات الأمراض وبيوت التنك والرطوبة والنّش والفقر ليسمعوك في بيت الله الذي يساوي بحجمه حجم بيوتهم بسبعين مرّة مزيّنًا بالرّخام والذهب والزخرفات التي يتكفّل ثمنها بإشباع بطونهم إلى يوم الدّين. عن أيّ ذنب يستغفرون ومن أيّ جهنّم يخافون بعد الموت؟ هم ميّتون أصلًا، و يحترقون يوميًّا في جهنّم.

خذها من فم السكّير الآن، وضع جانبًا لحيتك وعمامتك والعباءة التي تفاخر بها بيننا نحن الذين نلبسُ ما فرضه علينا الغرب الكافر لتشويه ديننا الحنيف المشوّه أصلًا بأحكام الجّلد والرّجم وقطع الأطراف والصّلب. عندما تصرخ بالنّاس أن يزهدوا ويتعفّفوا ويمتنعوا عن حبّ الدنيا والافتتان بها، ابدأ من نسائك الثلاثة،

والرّابعة التي يتغيّر اسمها كلّما تغيّرت الخادمة في بيتك الفاخر، وبيوتك الأربعة، وسيّاراتك الخمسة، ورواتبك المخيفة التي تضاف كاملة لرصيدك البنكيّ المرعب لشدّة ما يحويه من حسناتٍ وعملاتٍ صعبة. واذكر أنّ الرّسول الذي تتّخذه قدوة أنت وأمثالك من الكذبة كانَ يصلّي في مسجدٍ مسقوفٍ بسعف النّخيل، أرضه رملية وجدرانه من التّراب. في أيّامه لم يكن شكل بيت الله يختلف كثيرًا عن شكل بيوت عباده في الحرايق.

ها قد عاد أخوك السّارد، تلبية للدّعوة وطمعًا بكرم بو ناصر بفسح المجال لنا لملئ بياض الورق بحريّة. وقد شكرته سابقًا على هذا.

عزيزي. أرى أنّني ملزمٌ بالإضافة إلى بعض ما ورد في نصّك وتوضيح البعض الآخر، لكن قبل كلّ هذا أرغب بالحديث عمّا يحدث حولي الآن في هذه اللّحظة تمامًا. أظنّها أجمل نصف ساعةٍ في الكون تلك الممتدّة بين الخامسة والخامسة والنصف فجرًا بزُرقتها وهدوئها. ياه! أشعر بالمدينة وكأنّها شريكة ليلةٍ مجنونةٍ غافية في فراشي الذي لا يتّسع لنا سويّة جنب بعض، وأنا سهرانٌ أراقبها بانتظار أن تصحو.

كم تقسو الذّاكرة في مثل هذا الوقت، تصفعك الصّفعة تلو الأخرى. تلك الصّفعات الّتي لا تؤلم بقدر ما تحزن القلب. كأن أذكر كيف كنت أفتح الباب ليلًا بحذرٍ واحترافٍ كي لا أوقظ أبي فأجده مستيقظًا ينتظرني بغضب، كأن أذكر أول سيكارةٍ دخّنتها مع أمّي وأوّل مرّة اكتشفت هي وجود ضرب حشيشٍ في جيب سروالي المتّسخ، سألتها يومها عن "مبلغٍ من المال" كان موجودًا في الجيب فأجابتني أنّه على "رفّ الستيريو"، وفعلًا كان الحجر هناك.

أشتهي أن أفرح الآن بنجاحي في المدرسة على ثلاث علاماتٍ فقط، أشتهي أن يرجف قلبي مجدّدًا لسماع كلمة "أحبّك" من فمٍ صغير، للحافلة رقم ستّة البطيئة، لأكل كيس "الكري كري" في ملعب المدرسة جرعة واحدة قبل أن يكتشفه رفاق الصفّ. أعود إلى الصّور، كم كنت صغيرًا في عُرس أختي، ماذا كنت سأفعل لو كان عرسها الآن؟ كم أنا صغيرٌ الآن. رأيت ناطور المبنى يضرب زوجته فسكتت وأكملت طريقي. يقفُ خوفي من البحر أمامي الآن كالمارد، لا أخجلُ فيه. لكن يؤلمني خوفي من ركوب الدّراجات النّاريّة أو رؤيتها بعد الحادث الدمويّ حين كنت مع محمود. نجوت كقرد غابةٍ من الحادث دون إصاباتٍ خطرة، احتاج محمود أشهرًا ليتعافى وأصبح شبه مقعد، ثمّ توفي في حادث سيرٍ أثناء عودته من مرقد السّيدة زينَب في الشّام تلبية لنذر قيامته سالمًا، انقلبت بهم الحافلة. أشتاقُ إلى رسالةٍ نصيّةٍ من صديقي الشّقي يخبرني فيها أنّ أهله مَشوا إلى القرية، بدأت الحفلة. أشتاق إلى الغزوات على صحون المكسّرات مباشرة بعد خروج الضّيوف مع أهلي من الباب لتوديعهم. ساردٌ أنا الآن نعم، أبتسم ابتساماتٍ

عريضة وحدي كمختلّ، لكنّني أعلم أنّ في البلاد نفسها رجالٌ صاحون لم يكتفوا من بشاعتها بعد، يخطّطون لتشويهها وتضييقها على صدورنا أكثر فأكثر.
أقولها بكلّ تفاؤلٍ ورجاء، أتمنّى أن يصادف موعد موتي بين الخامسة والخامسة والنصف فجرًا كي تطير روحي بسلاسة في هذا المدى الأزرق منتقمة لي من رعبي وعجزي عن احتمال زرقة البحر ووسعه.
أعود لك الآن بهدوءٍ تام. أظنّ أنّك أسأتَ فهمي حين سألتُ ذاك المدّعي لماذا يمنع القانون تدخين الحشيش ويسمح في الوقت نفسه للمواطن بشرب ما يشاء من الكحول. لم يكن سؤال تذاكٍ عليكم ولا القصد منه تجريم الإنسان الكحولي. وإلّا سأكون مثالًا جديدًا للتّناقضات التي تملأ سطور هذا الكتاب. سؤالي ليس موجّهًا للدّولة بل لكم أنتم، وبالمناسبة إنّني ما زلت أنتظر منكم جوابًا واضحًا عليه.
أمّا بعد فأُريدُ أن أوضح لك بضعة أشياء فيما يخصّ رسالتك إلى الشّيخ الفّاحش الثّراء و المبالغ في استعراضه. أنا أعرفه شخصيًّا مثلك، وأعرفُ أنّ كل ما كَتبتَه كان حقيقيًّا وصادقًا، لكنّك كتبتَ أنّ امتلاك الثّروة غير موجودٍ في عمقِ مسألة كرهك للنّاس، وأنا لا أريد لك أو لأيٍّ من القرّاء أن يقعوا في حبّ شيخٍ آخرٍ فقير الحال يخطب في مسجدٍ بسيط بالنّاس عن القضايا نفسها أحيانًا وقضاياً أقذرٍ بكثير أحيانًا كثيرة أخرى.
مولانا الآخر هذا يأتي بقالبٍ مختلفٍ وشخصيّةٍ مغايرةٍ تمامًا. هو من سكّان القرية الأصليين وليس غريبًا عنهم، قريبٌ منهم يزورهم بانتظام، يشبههم في الشّكل واللّهجة والاهتمامات وحتّى في المكانة الاجتماعيّة. يسكن في بيتٍ أرضيٍّ بسيطٍ يأكل ويشرب ممّا يأكلون ويشربون. فقيرٌ مثلنا هو، لكنّه لا يحرّضنا على من فَقَّرنا من الحكّام والمتسلّطين بل يُحرِّضُنا على أشباهنا من الفقراء إن كانوا من مذاهبٍ أخرى.
أقنع الكثيرين أنّ انتمائهم لمذهبٍ معيّنٍ في الدّنيا يعطيهم أفضليّة عند الله في الآخرة كالرّشوى، يكاد يصرخُ بالعبارةٍ اليهوديّة الشّهيرة «نحن شعب الله المختار».
يملأ قلوبَ روّاد المسجد بالكره والضّغينة، يعميهم بتعميماته القاتلة عمّن ليس منهم. يحمّلهم جميعًا مسؤولية قتل الرموز المقدّسة منذ مئات السّنين. يستهدف الشّباب بالأخصّ، يستغلّ حماستهم وشغفهم بقيمةٍ ما، فينزع عمامته بينهم يتماهى معهم، يحرّضهم على التّمرين وحمل السّلاح. يدعوهم إلى الجّهاد والقتال في سبيل الله الذي

يتقاطع دائمًا مع سبيل الرّأسماليّ الحقير الذي يبني قصوره ويعقد صفقاته على دمائهم. وهم يصدّقونه، لأنّه مثلهم ويشبههم. لأنّه يتخلّى عن كلّ ما يميّزه عنهم في اجتماعاتهم يُدخّن ويضحَك ويَرمي بضع نكاتٍ خبيثةٍ ثمّ يستغفر الله. استغلّ بطالتهم وفراغ أوقاتهم وشعورهم الدّائم بأنّهم مسحوقون يعيشون على هامش الحياة دون قيمة، لبَّسهُم ثوب الأبطال، وأعطاهم سلطة ومهابة بين النّاس، لكن ليستخدمونها لقتال نسخةٍ تامّة عنهم في مكانٍ آخر تضلّلت على يد شيخٍ آخر محى خربشات الأطفال عن جدران البيوت وخطّ مكانها الأوامر بالقتل والقتال، سرق ألعابهم وقمصانهم المدرسيّة وألبسهم الجّعب والرّشاشات، وجعلهم أكياس رملٍ لا ترحم، تستقوي على أهلها وأصدقائها قبل الاستقواء على الأعداء المفترضين.
استطاع الشّيخ المسكين الهيئة هذا من تغيير وجه القرية بهدوءٍ وصبر، قلّت الأعراس وخصوصًا المختلطة منها وحلّ مأتمٌ دائمٌ في القرية فلا تكاد تجفّ دمعة أمٍّ فيه على ابنها الشّهيد حتّى تنهار أمٌّ أخرى على فقيدها. أقنع الجميع بأنّ الموت فداء القضيّة حياة، بأنّ الرّوح قربانٌ زهيدٌ لنيل النّصر العظيم في الجنّة. لكنّه لم يشرح لهم يومًا لم يضع الشباب ثمن الجنّة في حساب زعيم الطّائفة.
رفيقي، أنا لا أتحدّث عن شبابٍ لا أعرفهم، أتحدّث عن رفاقٍ كنت أسهر وأدخّن وأشرب وأغنّي معهم قبل مجيء هذا الديناصور. نجوت مع قلائل من بين أظافره السّامة، لكن الكثيرين اختفوا فجأة قبل أن تظهر صورهم على عواميد القرية شهداء بنظراتٍ تائهةٍ ألبسهم مصممٌ فاشلٌ على الفوتوشوب بذّاتٍ عسكريّة مرقّطة.
كأسك يا رفيقي. بنظرهم أنتَ سكّير، وأنا حشّاش، وذاك جبانٌ يهاب المواجهة ويخشى حمل السّلاح، والآخر كافرٌ لا يصلّي، وتلك سافرةٌ لا تضع حجابًا. لا يحقّ لنا كلّنا أن نسأل أيّ سؤالٍ بهذا الخصوص أو أن نمسَّ أيّ مساسٍ بمقدّساتهم وقناعاتهم.
لكن يجب أن يعرفوا أنّنا كلّنا، وأعني نحن وهم وحتّى مقدّساتهم وشهداؤهم وتضحياتهم، لسنا سوى وقود سريع الاشتعال في مطحنة الطّاغية. لسنا سوى وقود لقبور الحرايق.

١٥

لا أعرف إن كان هذا نصف الكتاب أم آخره، لكنّني أعرف أنّه الوقت المناسب لي كي أدلي بدلوي من جديد بعدما نلت شرف افتتاحه، لكن دون ألعابٍ وخدعٍ هذه المرّة. أنا البطل في هذه اللّعبة، لعبة اختيار الوقت المناسب كي أحرق كلّ شيءٍ وأنصرف.

لم يكن ذكاءًا خارقًا منك اكتشاف لعبتي. بالعكس تمامًا، لقد كان غباءًا شديدًا منك أن تمرّ عليك كلّ هذه السّنوات قبل اكتشاف أمرها. سنواتٌ طويلةٌ وأنا أنمو وأقتات من خيباتك وهزائمك وانكساراتك من داخل الداخل. فعلًا أعشقُ أفعال الأمر وأنتشي برؤيتك تنفّذها بإتقان. أظنّ أنّ الله يعرف جيّدًا قيمة فعل الأمر ونتائجه حتّى كان أوّل ما خطّه الوحي" اقرأ".

كان الأمر بمنتهى السّهولة معك، لم تعذّبني كثيرًا. أدمنتَ وجودي وتدخلّي في الوقت المناسب للقضاء على أيّ أملٍ تشعر بوجوده في زاويةٍ ما بالنّار كي نتأكّد من اختفائه التّام ونهايته الأكيدة. لم نسأل أنفسنا ولا مرّة إلى أين تنتقل الأشياء عندما تحترق وتختفي مع الدّخان. أين يقع ذاك المكان العجيب الذي يرمي فيه دخان الحرائق غنائمه المحروقة كلّها مهما كثرت وكبر حجمها حتّى ولو كانت أحياء سكنيّة بكاملها التهمتها حرائق الغابات.

لا يا صديقي، لم أكتف من خيباتك بعد، وأعدك أنّني لن أكتفِ طالما يوجد في جسدك قلبٌ ينبض. ستبقى هوايتي المفضّلة رسم النّوافذ الوهميّة على جدار كهفك المظلم والضّحك على محاولاتك البائسة للخروج عبرها.

إنّها الحياة يا صديقي، هكذا ببساطة، حياتك أنت. أنت الذي تحبّ قول الشّاعر "واللّيل عديم الطّعم بدون هموم". أتى من يصحّح هذا الخلل برأسك ليخبرك أنّ العمر كلّه عديم الطّعم بدون هزائم. وإلّا ستكون كذلك الإله الذي تكرهه، كيانًا مملًّا لا يُهزم ولا طَعم لعِشرته ولا لخصامه أو قتاله ولا لوجوده حتّى.. ناجحٌ في وظيفته كحجر نهايته معروفةٍ بالأرقام.

انظر إلى نفسك الآن وأنت مرعوبٌ من أن أمزق كلّ هذه الأوراق وأرميها بوجهك وأقول لك: «جرّب حظّك مرّة أخرى». أنظر إلى أصدقائك الذين كتبوا معك يجلسون خلفك بوجوهٍ ترجوكَ أن تضع لي حدًّا. مساكينٌ هم أيضا، لا يعرفون ضعفك أمامي وخوفك منّي. يظنّونك قادرًا على قتلي ولا يعرفون أنّني لا أموت إلّا بموتك مثلهم تمامًا.

سأبقى أنا الوحيد الّذي يرسم كلّ نهاياتك، كلّها. وأنت لا يسعك سوى رسم نهايةٍ واحدةٍ مفترضة لكلّ هذا، حاولتَ رسمَها مرّةً في السّابق لكنّك فشلت. لأنّك جبانٌ ربّما، أو بالأحرى لأنّك تطمع بنهايةٍ أحلى وأمتع، كأن يقتلك السّرطان مثلًا. لماذا هَلعت؟ لم أكن أعرف أنّك تخافه بهذا القدر. ألا تتوقّعه وتنتظره مثلي؟ أنظر إلى نفسك، ملايينٌ من الخلايا تنمو وتموت وتُولَد فيك دون أن يكون لك أيّ رأيٍ في كلّ ذلك وأي قدرةٍ على التحكّم بانتشارها. أنت فقط تغذّيها طوعًا بما تحتاجه كيٍ تصبح فتّاكة وتأكل أحشاءك. لم أنت متفاجئٌ هكذا؟

تعيش في واحدةٍ من أكثر مدن العالم تلوّثًا وضجيجًا وفوضى، تأكل القذارات والمعلّبات الّتي تحوي موادًا سامّة تفرح قلب خلاياك الخبيثة، إن كانت من مطابخ المطاعم السّريعة القذرة أو من مستودعات الأطعمة الفاسدة أو الأراضي المزروعة التي يختلط فيها التّراب مع المبيدات مع ملايين الموادّ السّامة التي أهدتك إيّاها إسرائيل كي تقتلَ نفسك بنفسك. لا مهرب يا صديقي من ذاك المرض كما تسمّيه جدّتك، وهي قد أعطته هذا الاسم لأنّه كان غريبًا عنها وعن القرية فعلًا وليس ضيفًا ثقيلًا في كلّ بيتٍ كما هو الآن. فلنتخلّص من رعبنا منه كأنّه نحسٌ يأتي من عالمٍ آخرٍ ولنعترف أنّه يعيشُ لأنّنا نغذّيه بأيدينا، كما تغذّيني أنت بيدك. مرضٌ خبيث يقولون، كأنّه يمكن للمرض أن يكون رقيقًا حنونًا.

تعيش متوتّرًا بأعصابٍ مشدودة كلّ النّهار واللّيل، تمشي بين ملايين السيّارات كلّ يوم وتستنشق دخانها السامّ، يتراكم الباطون فوقَ الباطون فوق الباطون قاتلًا أي بقايا أثرٍ لزهرةٍ هنا أو شجرةٍ مختبئةٍ هناك، تدخّن بشراهة، تمشي في الشّارع بين أكوام النّفايات التي تعلق أثارها على جسدك وثيابك وتخترق روائحها صدرك، يمر خبرٌ عابرٌ في نشرة الظّهيرة أنّ شركة احتكار النّفايات أبلغت الدّولة أنّها توقّفت عن لمّ النّفايات الطّبيّة أيضًا وفضلات المستشفيات السّامة التّي يأخذها الأمر أسبوعين كحدٍّ أقصى كي تفتك بكلّ محيطها. تستحمّ بماءٍ قذرةٍ رائحتها كرائحة جيفةٍ متعفنّة، تغسل أسنانك بها وتُسقي بها زرعك، وتوهم نفسك أنّك لا تَشربها عند شرائك المياه المعدنيّة غالية الثّمن، لكنّها نفسها يا صديقي. كلّ ما يبغي الرّبح مُسرطِن.

استعدّ يا صاحبي، لم يعد السّرطان قريبًا منك فقط بل أصبح بداخلك وبدأ يلعب لعبته

المثيرة للإعجاب. وأنت أيّها النّحيل البائس، سيزيد نحولك نحولًا قريبًا جدًّا ويزيد كسلك، ستتعب وتتعرّق من أيّ حركة تأتي بها وتبدأ رحلة الخوف من بولِك وبرازك، سوف يوقعك الدّوار أرضًا ويدور بك من مكانٍ إلى آخرٍ ومن عيادةٍ إلى أخرى حتّى تصل إلى ذلك الطّبيب المسكين ليطلب منك أن تتحلّى بالأملِ والشّجاعة.

مسكينٌ هو أيضًا ذلك الطبيب، رمى به القدر في عيادة كغرفةٍ في مخفر ليعيش مع وعلى أمراض النّاس وجراثيمهم. ثمّ يخبرهم أنهم سيموتون قريبًا ويطلب منهم بملل أن يتحلّوا بالأمل والشّجاعة. كم نحن تافهون أحيانًا وكم تبدو تافهة تلك المشاهد عندما نشاهدها عن بعد، رجلٌ يسكن في بؤرةٍ سرطانيّة يقتات بها وتقتات به، يبكي متفاجئًا في عيادة طبيبٍ متخصّص بالأمراض السّرطانية أخبره أنّ السرطان سيقتله قريبًا. لست أكتب لك عن السّرطان كي أخيفك أو أرعبك، ولست أكرّر اسمه بكثرة عن عبث، ولا أنا أضع توقّعاتي أمامك كي يثبت الوقت صحتها. أنا أذكّرك ببساطةٍ أنّك تعيش في جيل السّرطان ولكنّك تعيش صراعًا بين المنطق الذي يفرض عليك التّعامل معه كأمرٍ واقعٍ موجود في كلّ تفاصيل حياتك، وبين المنطق الموروث الذي يفرض عليك أن تتعامل معه كهجنةٍ غريبةٍ ملعونة منحوسٌ من تصادفه.

لن يعود هناك شيءٌ اسمه ميتة طبيعيّة في نهاية جيلك، سيكون السّرطان هو الميتة الطبيعيّة، سنعتاد عليه وننتظر أن تسعف الأرقام التجّار وتصل إلى رقم خارج المنطق كيّ يحدّدوا السّعر المناسب لعلاجه في السّوق، لأنّنا لو حدّدنا لعلاجهٍ سعرًا بأرقام العالم كلّه سيبقى بخسًا نسبة للطلب عليه، سيبقى خسارة لأولئك الذين يخفونه ريثما يحين الوقت المناسب لبيعه. أولئك الذين يساوي سعر رغيف الخبز الذي يأكلونه سعر عشر وجباتٍ سريعةٍ سامّةٍ تأكلها أنت على عجل. عشر وجبات تشبعك، تشبعهم، تشبع خلاياك الخبيثة، وتشبع ديدان الحرايق.

الصدى

عشرون دقيقةٍ مشيًا على الأقدام، الوقت الذّي احتجته تمامًا كي أصل من باب بيتي إلى باب الحرايق. برفقتي ابن أختي، أكمل اليوم عامه الثّاني عشر، سيتذكّر حتمًا هذا اليوم طيلة حياته، ليس لأنّ خاله أهداه زيارة للقبور في عيده فقط، بل لأنّه قتل اليوم العصفور الأوّل في حياته ببندقيّة جّدّه.

أن تسير بقدميك إلى الحرايق أمرٌ مثيرٌ فعلًا، تحسب نفسك مسجّى في صندوقٍ خشبي مستطيلٍ في خلفيّة سيّارة "الفولفو" الّتي يقودها سليمان، وسليمان هذا جار عائلتي في بيروت أصيب برصاصةٍ في رأسه خلال الحرب الأهليّة شلّت حركة جسمه وقلبه تمامًا فتعامل النّاس معه كميتٍ ووضعوه في برّاد الموتى ريثما يفتح المعبر ليتسنّى لموكب الجنازة الوصول إلى قريته. يوم زار أبي المستشفى ليودّع صديقه وجد مع المسؤول عن الجثث آثار نفسٍ من أنفه وفمه على كيس الموت، فأخرجوه فورا بقلبٍ نابضٍ من البرّاد، وخرج من المستشفى بجسدٍ معاقٍ ولسانٍ ثقيلٍ بعد سبعة شهورٍ ليستلم وظيفة قيادة سيّارة نقل الجثث من المغسل إلى مثواها الأخير. تذكّرته وأنا في طريقي نحو الحرايق خصوصًا يوم اقتحم علينا سهرة تدخينٍ سريّةٍ في موقف السّيارات خلف بيتنا ليتنبّأ بموت رفيقي في قريته وبموتي في الغربة، قال لنا هذا وذهب.

استقبلَتنا على الباب لوحة من الرُّخام مكتوبٌ عليها دعاء زيارة أهل القبور مهداة إلى روح أهل الشخص الثريّ المُغترب الذي اشترى الأرض وقدّمها للوقف لدفن أهل القرية فيها بعدما ضاقت مقابر القرية عليهم ولم تعد تتّسع. وأخرى تحتها تشكر وزير الزّراعة الذّي دشّن مشروع تشجير المقبرة. رجال الوزير المذكور نفسه منعوا وصول طريق الزّفت إلى باب بيتنا.

كانت المرّة الأولى الّتي أدخل بها الحرايق بهذا الهدوء، انتبهت لوجود بيتٍ وحيدٍ ملتصقٍ بها، ترى من يسكن هنا وحده بلصق القبور وكيف يتعامل مع أطفاله بخصوص الجّيرة؟

منذ سنواتٍ قليلة وفي أثناء رحلة شقاءٍ ليليٍّ مع بضعة أصدقاءٍ أصغر منّي سنًّا سَطَونا على أشجار المُشمُش واللّوز والكرز في بساتين القرية، رَمَينا حجارة ضخمة في إحدى البرك الآسنة، صرخنا في الشّوارع بمنتصف اللّيل لنزعج النيام وطرقنا أبواب

البيوت وهربنا. في أثناء محاولتنا للرّاحة وأخذ النّفس في بستان بيت صديق لنا سمعنا صوت ديكَهم في القنّ. عشاء اللّيلة فاخرٌ إذًا، ديكٌ مشويٌّ مسروق. تطوّع أشجعنا للدّخول إلى القنّ وسرقة الدّيك رغم ضخامة جسمه، جفل الدّجاج وأحدث ضجة أيقظت صديقنا وأهله، ركضنا نحن كالمجانين بخوفٍ ممزوجٍ بضحكٍ عالٍ مبالغٌ فيه بلغ ذروته لحظة سمعنا صديقنا "الضّحيّة" يشتم صديقنا "السّارق" بالاسم ويهدّده بالقتل.

أنظر اليوم إلى قبريهما المتجاورين في الحرايق، قُتِل الأوّل في حادث سيرٍ على شبه الطّريق العام غير المضاء ليلا وجيءَ بجُثَّة الثاني من سوريا حيث كانَ يقاتل في صفوف الحزب، أكاد أختنق، أتمالك نفسي ولا أبكي، لكن ما يبكيني الآن هو قبر والد أحدهما الذي توفي بعد ابنه بأيّامٍ قليلة بقلبٍ محروق. قلبٌ كان يمكن إنقاذه لو كان في قريتنا مستشفى، لو كان في القرية المجاورة مستشفى، لو لم تكن المستشفى بعيدة عن القرية مسافة نصف ساعةٍ في السيّارة.

انفجرت قارورة غاز كبيرة منذ فترة في فرنٍ صغيرٍ في القرية، ألهبت وجه صاحبه ورزقَه. هرع أحد أقربائه للنَّجدة عندما سمع الصراخ والاستغاثات. وضع الأخير صاحب الفرن المُصاب على مقعد السيّارة الأماميّ بجانبه وانطلق بسرعةٍ جنونيّةٍ نحو المستشفى البعيد. لم يكن يملك أيّ خيارٍ آخر لإنقاذ رفيقه المصاب قبل أن تلتهبَ الحروقُ في جسده وتتمدّد دون إجراء الإسعافات الضّروريّة لإنقاذه. انقلبت السيّارة بهما وارتطمت بعامودِ الإضاءة المطفأ الذّي اخترقها من نصفها وقتل السّائق. هذه الأمور تحدث. في قريتنا عشرة مساجد، في بيروت يمكنك أن ترى مدخل المستشفى من باب المستشفى المقابل له. وهنا أوّدّ التوضيح كي لا يتفرّغ من سيكتُبُ بعدي لإعطائي الدّروس وتصحيح ما قلته، رغم كلّ المستشفيات المنتشرة في بيروت كالدّكاكين فقد ولّدت امرأةٌ طفلها في وسط الشّارع لأنّها لا تملك المال، وقُتِل والد صديقٍ بعيد لي استطاع تأمين المال في المستشفى بسبب إهمال الأطبّاء وغبائهم.

توجّهت مع ابن أختي نحو خطّ القبور الجّديد، وفيه قبر عمّي الذي توفي في رمضان الفائت، عمّي الذّي قرّرت بعد تفكيرٍ دام لليالٍ طويلة ألّا أكتب عنه في الحرايق-الرّواية طالما هو الآن في الحرايق-المقبرة.

لمحت بجانب القبر صندوق كرتون مليئ بالتّراب، "خالو، مش هيدا الصندوق تبع شغلك؟" سكتتُ وهززتُ رأسي للأمام ثلاثَ مرّات، ماذا يفعل هذا الصّندوق العاهر هنا؟ أتُراه عمّي الآخر وقد كان زميلي في الشّركة الملعونة قد أتى به؟ نعم، أكيد. لكن لِم؟ ولم هو مليئ بالتّراب؟

مبروكةٌ عليك بلاطة الشّاهد يا عمّي، لن يسأل الزوّار لمن يعود هذا القبر، فها هو اسمك بارزٌ مع تاريخ الولادة والوفاة تفصل بينهما مسافة إصبعين. أتسمعني؟ لا أنتظر منك جوابًا، أصلًا لم تكن تسمعني في آخر شهور حياتك الّتي قضيتها غير موزونٍ جسديًّا ولا عقليًّا. كنت تناديني باسم حسن في هذه الفترة، تحاول جاهدًا إظهار محبّتك لي ولأخوتي رغم كلّ شيء، اكتشفت أنّني أحبّك رغم كلّ شيء، أحبُّ أمّي أكثر منك، أكثر من الكون كلّه، لكنّني أحبُّك.

مضحكٌ قليلًا أن أكتشفَ هذا الآن أو أُعلن عنه للملأ، لَن يعني الكثير للكثيرين، وسيجده البعض خارج سياق كلّ شيء. فليضعوا إصبعهم في حلقهم وليخرسوا. حكايته التي لن أرويها هي كلّ شيء. أغلب الظّن أنّك كنت تناديني باسم حسن على اسم ابنك البكر الذي اعتاده لسانك ولم تتمكّن الجلطات الدّماغيّة المتتالية من سلبك إيّاه. لا بأس أبدًا، اسمي الأصليّ حسن، لديّ شهادة ميلادٍ تثبت ذلك، وشهادة وفاة أيضًا. لم يكن أبي من سمَّاني يومها أو راضيًا عن التّسمية فانتظر سنة تامّة كي لا يضيع تاريخ ميلادي باليوم والشّهر وأصدر شهادة وفاةٍ باسم حسن وشهادة ميلاد باسم مروان، كان أخي يحبّ أغنية "لوين يا مروان" لوديع الصّافي، فدفع حَسنُ الثّمن، وأصبحت انا أكبر من سنّي المذكور على الهويّة بسنةٍ تمامًا.

رمى حسن نفسه من الطّابق السّابع ومات بعد موت عمّي بأيّام قليلة. ربّما هي الصّدفة، ربّما هي ليست صدفة أصلًا ولا علاقة للأمور ببعضها، لكن أنا أربط الأحداث بطريقةٍ غبيّة دائمًا للحصول على سيناريو مشوّق. كلّا، موت حسن ليس حدثًا. لن أمحو هذا المقطع.

لا أعلم من وضع باقة الزّهور الاصطناعيّة هذه على قبرك لكنّها بشعة، بشعةٌ رغم نواياه الحسنة. لا أعلم من اختار حفر آية رجوع النّفس المطمئنّة الرّاضية إلى ربّها على شواهد كلّ القبور رغم عشرات الآيات التّي تتحدّث عن الموت وعذابه وشدّة

العقاب من بعده في القرآن. لا أعلم إن كنت تسكن جسد هذا الزيز الّذي حفر بيتًا صغيرًا جنب القبر بحجم الأصبع. لا أعلم من أين أتى حجر الصوّان العجيب هذا إلى مكانٍ كهذا ولا لماذا قرّرت أن آخذه معي إلى بيتي، ربّما تسكنه أنت أو غيرك.

لا أملك أيّ جوابٍ على كلّ هذه الأسئلة، ليست مشكلة بعد الآن عندي ألّا أملك أجوبة عن الموت، بالعكس تمامًا، ربّما هذا ما يجعله مشوّقًا جدّا، ربّما لذلك استلقيتُ بمحاذاة أحد القبور المحفورة حديثًا لأقيس طولي بالنّسبة إليه. مازال سطحَه ترابيًّا وقد وُضع حجر لبنٍ مكسورٍ لتعيين مكان الرّأس. ربّاه كم هو صغير هذا القبر، يصل إلى ما فوق خاصرتي بقليل، ولا علاقة لذلك بطولي الزائد، ربمّا هو لطفلٍ صغير، ربّما هو لعجوزٍ صغر جسمه، ربمّا هو لواحدٍ من عشرات الشّباب الذّين تمزقّوا في ساحة القتال ولم يجدوا من أجسادهم سوى قطعٍ صغيرة متفرّقة وضعوها في كيسٍ بتابوتٍ وهميّ يوم الدفن.

مريحٌ جدًّا أن أتصالح مع فكرة موت الجّسد، وأكسر خوفي منه نهائيًّا، لا بل أن يأخذ الموضوع منحىً معاكسًا تمامًا لأصبح أشتهيه وأتخيلّه بقالبٍ جماليٍّ مغرٍ، ليصبح الفناء مرجعي في اتّخاذ أيّ قرارٍ أو قول أو حركة. أن أذكر دائمًا أنّه مهما تعاظمت الأمور وتضخّمت في خيالنا فهي صغيرةٌ في الواقع، صغيرةٌ جدًّا. ربّما لستَ تسكُنُ في جسد هذا الزيز الأسود، لأنّك الآن أضعف منه بكثير، كان بإمكانك أن تملك الجيوش والدبّابات والثروات ومؤسّسات الاحتكار والشبّيحة والقنوات التلفزيونيّة التي تمجّد حذائك ليل نهار، كان بإمكانك أن تجلس في قصرك العاجيّ ببذّةٍ رسميّةٍ بعيدًا عن النّار التي تلتهم شبابًا في عمر الجوريّ يموتون بسلاحك أو دفاعًا عنك، كان يمكن لك حيًّا أن تملك كلّ هذا وفوقه أن تملك براميل نارٍ عليها توقيعك ترميها فوق رأس كلّ طفلٍ يزعجك صوته. لكنّك الآن ميتٌ، يمشي على قبرك زيزٌ أسودٌ متعثّر، ولا يمكنك فعل أيّ شيءٍ حياله، لا يمكن لكم جميعًا فعل أيّ شيءٍ حياله. وقفتُ، نفضتُ التّراب عن ثيابي، دعستُ الزيز، وتركتُ الحرايق.

كان يفترض أن ينتهي الكتاب مع نهاية الفقرة السّابقة، لكنّني لن أسمح بذلك أبدًا، باسمي وباسم كلّ من كتب قبلها وأفرغ ما في قلبه وتعرى من مخاوفه وهلوساته أمام النّاس. باسم جميع الذّين اتفقوا وتشاجروا وتقاتلوا وشتموا وأهانوا وهدّدوا بعضهم البعض علنًا وفي السرّ. لم نفعل ونتحمّل كلّ هذا كي ينتهي الموضوع بزيارةٍ للمقبرة وقتل زيزٍ فيها مهما كانت رمزيّته في سياق النصّ. يمكن أن نكون نّحن الزّيز أيضًا بالنّسبةِ لمن يقتلنا ولنا عنده رمزيّةٌ خاصّةٌ تجعل من سحقنا خاتمة باهتة لروايةٍ عابرة.

لم يقُلِ ذاك الأسير المحرّر يومًا "الحمد لله، نحن دائمًا على حقّ" عبثًا. ربمّا كان يتحدّث باسمنا جميعًا، باسم البشريّة جمعاء. فبالرّغم من كلّ التناقضات الحادّة بيننا يعتقد كلٌّ منّا من موقعه ووجهة نظره أنّه محقٌّ فيما يفعل ويقول، حتّى ولو كان مخطئًا بنظر الكون كلّه فهو يملك مبرّراته الكافية لفعله وقوله دون تردّد.

لِمَ يعتبر انفصام الشّخصية مرضًا بالأصل؟ من منكم لم يجد ما يشبهه في شخصيّتين على الأقلّ ممّن كتبوا في هذا الكتاب؟ من منكم لا يملك تصوّرات واعتقادات منافية للمنطق أو الواقع؟ من يحدّد معايير هذا المنطق والواقع أساسًا؟ ألم يكن هو المثال الأبرز على الفصام؟ من منكم لا يسمع ويرى أحيانًا أصواتًا وأجسامًا لا يراها غيره في المكان؟ من منكم لا يضطرب في حديثه وحركته ومشاعره وحيدًا كان أم أمام النّاس؟ من منكم لا يربط الموت بالرّاحة في حديثه وهو لم يستوعب بعد كيف يمكن أن تكون نهاية جسده وأجساد من يحبّ قوتًا للحشرات في حفرةٍ محكمة الإغلاق تحت الأرض؟

لا أنا لست مريضًا، أنا مثلكم تمامًا. لكنّني قرّرت أن أُفرغ كيس أقنعتي كلها أمامكم على الطّاولة فقد أنهكني حمله. لا أفرض على أيّ أحدٍ في الكون أن يقوم بالفعل نفسه، فليستمرّ كلّ واحدٍ في إخفاء أقنعته أو يعرضها متى شاء هذا شأنه، لكن توقّفوا عن وصفنا بالمرضى نحن الّذين نبرز تناقضاتنا دون خجل، ولتكفّ المافيات عن تخويف البشر من طبيعتهم البشريّة واستغلال هذا الخوف لتحقيق الأرباح المرعبة في سوق الأدوية والعقاقير الكيماويّة وجلسات الكهرباء وغسل الدّماغ.

تقتلنا السّلطة العليا يوميًّا بتأنٍّ وذكاء، وهنا أتحدّث عن القتل البطيء وليس القتل

المباشر كما تقتلنا بالرّصاص والسّكين وحبل الإعدام أحيانًا. تعرفُ السّلطة تناقضتنا وكم شخصيّة مختلفة تعيش داخلنا جيّدًا، فتبحث بينهم عن الشّخصيّة الخائفة المطيعة لتغذّيها وتنمّيها وتقتل كلّ شّخصيّةٍ ثائرةٍ بداخلنا متمرّدة علينا وعليها. لا أعني بالسّلطة الحكومة فقط، بل سلطتنا الدّاخليّة والأخ الأكبر والأهل وزعران الشّارع والمسجد والكنيسة والمدرسة وربّ العمل والحكومة والاحتلال وكلّ سلطات الكون التّي تفعل ذلك كلٌّ على طريقتها.

كان أبي يقول لي – وما زال حتّى اللّحظة هذه – في معرض تبريره لأيّ فعلٍ أو مبالغةٍ قام بها تجاهي: "غدًا عندما تصير أبًا ستترّحم علينا وتعرف معنى هذا كلّه وتفهمه". أظنّ أنّني فهمت هذا باكرًا قبل أن أصير أبًا أو أن يترحّم أحدنا على الآخر. كيف أنّ الصّفعة الّتي تحطّ على رقبة طفلٍ خالف نظام البيت قد انطلقت أساسًا من صندوق النّقد الدولي ومرّت على مئات الرّقاب قبل أن تصل إليه.

كأنّه يقول لي عندما ستُصبح أنت السّلطة ستقوم بممارسة الحُكم بالطّريقة نفسها التي تمارسها عليك السّلطات وستجد تبريراتك الخّاصّة لفرض ما تراه مناسبًا على نفسك وعلى الآخرين دون أن يكون لهم الحقّ في الرّفض أو حتّى التّساؤل عن معنى هذا كلّه. ستقتل الشّخصيّة المفكّرة والثّائرة والمتجاوزة داخل كلّ واحدٍ منهم، وإن تجرّأ أحدٌ منهم على الرّفض والتّمرّد سيهاجمونه هم قبل أن تفعل أنت، سيقولون عنه مجنون أو مريض ربّما، ربّما سيهدرون دمه ويقتلونه، وإن سألهم أحد لم يفعلون كلّ هذا سيكون جوابهم حاضرًا حتمًا: لمصلحته الخاصّة.

أنتم تفعلون الشيء نفسه مع أنفسكم لتتحوّلوا مع الوقت لشخصيّاتٍ آسنة لا حركة فيها ولا شكّ يدفعها للبحث والتطوّر المستمرّ، ولا تكتفون بذلك بل تقولون عنّا مرضى ومجانين ينبغي التخلّص منّا إن تعذّر علاجنا وتسمّون ذلك عملًا نبيلًا ولكنّه مليء حقًّا بالجبن والقذارة. قذارةٌ يمكن لها أن تكون استباقيّة كما هي الحال في ختان البنات المبكّر خوفًا أن يستعملن نشوتهنّ بما لا يناسب العشيرة الصّلبة ووجهائها. امنعوا سلطتكم الدّاخلية أن تقتل المختلف فيكم، لا تجبنوا بل أطلقوا العنان لكلّ من هو أنتم مهما قال أو فعل، إنّه موجودٌ وحقيقيّ والمرض يكون في سجنه وإسكاته والتّظاهر بعدم وجوده وليس العكس.

إن كان لا بدّ لكم أن تسجنوا أو تقتلوا أحدًا فاقتلوا الجلّاد الذي زرعته السّلطة فيكم كي يقمعكم ويبقيكم كآلات وأصنام وألعاب مربوطةٍ بخيطان. هذا الجلّاد المجرم الذي يمارس شناعاته بحماس وثقةٍ ويوسمها بالنّبالة وخدمة المصلحة العامّة والخاصّة. افعلوا ذلك بسرعة وتمكّنوا منه قبل أن يتمكّن هو منكم نهائيّا، حرّروا الذّين يعيشون فيكم من سوط جلّادهم الدّاخليّ قبل محاولة تحرير أنفسكم من سوط الجلّادين الأكبر في الخارج فهم كثر ومواجهتم مستحيلة بظهورٍ مثقلة بالخوف والأقنعة. أتعرفون ماذا؟ كان صاحبنا محقًّا، اللّعنة على فعل الأمر مهما قال، وربّما يكون صاحبنا الآخر محقًّا أيضًا وهو يقول لي الآن: "اقتل جلّادك أنت في البدء قبل تنصيب نفسك إمامًا وواعظًا في النّاس تأمرهم بفعل شيءٍ وتنهيهم عن فعل غيره" وأجيبه أنّني إن انتصرت وأجهزت عليه ماذا سأفعل بوجه الجلّاد الأقوى في معركتي معه؟ وهي معركةٌ خاسرةٌ سلفًا قبل أن تبدأ لأنّه الآن وفي هذه اللحظة تحديدًا ينتظرني هناك كي أُنهَك وأُستنزَف في كلّ معاركي قبل أن أصل إليه خائر القوى أصمًّا أبكمًا أعمى لا أستطيع المشي حتّى، كي يذلّني لبضع دقائق قبل أن يبتلعني ويطبق فمه الضّخم على عظامي. أهلًا بك في الحرايق.

١٨

منذ سنةٍ تقريبًا اعتذرتُ من رفاقي في سهرة تسكّع باردةٍ في شارع الحمرا وأبلغتهم بضرورة عودتي المفاجئة إلى المنزل. أصرّوا عبثًا عليّ أن أبقى لكنّني رحلت مسرعًا وكأنّني خارجٌ لتوّي من أبو غريب يملأني الرّعب أن يكون خروجي هذا حيلة وهميّة ينفّذها السجّان لتدميري نفسيًّا وتحقيري قبل أن يعيدني مجدّدًا إلى سجني.
كان بإمكاني أن أدفع ألف ليرةٍ ثمن التّوصيلة في حافلة الرّكاب، لكنّني عرضت دفع خمسة آلافٍ لسائق التّاكسي فوافق على الفور. لم أفكّر بأيّ شيءٍ طيلة الطريق، فقط أنظر إلى مصابيح الإنارة المضاءة و أزمّ عيوني وأتخيّل أشكالًا بانعكاس الضّوء فيهما.
فتحت الباب بهدوءٍ مبالغٍ فيه ودخلت، أشعلت سيجارة والتهمتها بثوانٍ قليلة، أرخيتُ ظهري على الفراشِ وشردتُ مع صوت المطر الخفيف الجّميل. بائسٌ يكره نفسه وجسده، يكره عمله ولا يمكنه الاستغناء عنه، يراه النّاس فنّانا ثوريًّا يُلهب الحضور عندما يعتلي خشبة المسرح ويعتبرون ما يفعله مع رفاقه أساسيًّا في بثّ الأمل بتغيير واقعهم المزري، لكنّه فقد الإحساس بأيّ شيء، لا يفرح ولا يحزن ولا يثار ولا يغضب ولا يحبّ ولا يكره ولا يعتاد ولا يأمل، أيّ خرقةٍ باليةٍ صرتها يا بو؟ أغمضت عيوني محاولًا النّوم الطّبيعيّ الّذي أفتقده منذ أيّام. تحوّل الفراش إلى بالونٍ مليءٍ بالماء تمامًا وأنا في داخله أحاول الاستغاثة بمن حولي وهم لا يرونني! أحاول التّنفّس عبثًا، أشعر بالدّوار الشّديد وبلسعات كهرباءٍ تطحن صدري، حاولت التدحرج علّني أثير الانتباه، لكنّ الأمر زاد سوءًا، طويت قدمي ولم يعد بإمكاني تقويمها، يشتدّ الألم في عنقي، لم أعد أرى إلّا اللّون الأخضر يعمي عيوني، صوت الماء يقوى، ألم قدمي يقوى، يا لهذه الميتة البشعة! هل عشت كلّ ما عشته كي أموت غرقًا في بالون ماء؟ دوى انفجارٌ هائلٌ في رأسي كانّني أركب الرّعد! شعرت ببرودةٍ خفيفةٍ بين قدميّ، ربّما انتبه أحدهم لوجودي ففجّر البالون المائي، فتحت عيوني وأنا أشهق كالمذبوح في الفراش الذي وجدته على حاله، النّور ما زال مضاء وقد اشتدّ وقع المطر قليلًا في الخارج. دخلتُ إلى المطبخ الواسع الموحش، أحضرتُ أكبرَ سكّينٍ ورجعت إلى مكاني، ربّاه! إنّ قدمي تؤلمني بشدّةٍ! هل كنت أغرق حقًّا في بالون ماءٍ؟
صرت ألامس طرف السكّين الضّخم بشفتاي، ثمّ عنقي، فصدري حيث يجتمع ألم الكون كلّه الآن. «لن أموت برخصٍ هكذا» قلت، كتبت على صفحتي الشخصيّة على

فايسبوك: «كم يحلو الموت تعبًا في مثل هذه الأيّام، إنّها الليلة المناسبة لإتمام الأمر». وضعتُ السكّين على عنقي، حاولت الضّغط لكن يدًا خفيّة تقاوم يدي، لا أصدّق ما أراه على الشّاشة أمامي! أربعون شخصًا سجّلوا إعجابهم بما كتبت في غضون دقائق! أيّ عالمٍ مجنونٍ هذا الّذي أعيش فيه؟ اضغط يا بو! اليد الخفيّة تقاوم بصلابةٍ أكثر. غيّرت موضعَ السّكين وجعلته أسفل بطني، سال قليلٌ من الدم، ابتسمت، ستّون إعجابًا على ما كتبت. أرخيت السكّين قليلًا وتأكّدت أنّ اللّيلة ليلتي وهذا الدّم يشهد. سأستمعُ إلى صوت "باريسا" للمرة الأخيرة وأدخّن سيجارتي الأخيرة وأمضي مكتفيًا. تلقّيت رسالة اطئمنان من صديقٍ أشتاق له فأجبت، ثمّ سأل وأجبت وسألت فأجاب وبدأ البالون بالامتلاء مجدّدًا، القليل من الهواء في صدري هذا كلّ ما أحتاجه كي أصل إلى السكّين الملعون، يشتدّ الألم في قدمي، امتلأ البالون تمامًا، كلّ شيءٍ أخضر، تخفّ الأصوات تدريجيًّا ويرتخي جسدي مع الماء التي تمايله بهدوءٍ حتّى استيقظت صباحًا. كلّ شيءٍ في مكانه. مسحت الدم. قدمي تؤلمني ألمًا محتملًا. ربّما لا يعرف هذا الصديق أنه أنقذني من موتٍ محتومٍ اشتهيته، ربّما هو يعرف، لا فرق. أنا الآن هنا، والحرايق في الحرايق.

١٩

سنينٌ طويلةٌ وقصيرةٌ مرّت، أنا واقفٌ الآن على عتبة باب الثّلاثين بظهرٍ محنيٍّ مثقلٍ بالألم والخيبات والخسارات، بصدرٍ شبه صدئٍ وعقلٍ يعمل ببطءٍ شديد، بعيونٍ زائغةٍ وأذنين لا تكفّان عن الطنين ليلًا ولا نهاراً، بيدٍ راجفةٍ لا تقوى على حمل أيّ شيءٍ خفيف، بندبةٍ في خاصرتي تقول لي كلّما رأيتها إيّاك أن تتطاول على السّلطة، برسائلٍ خاطئةٍ في رأسي عمّا هو الحبّ والجّنس والزوجة والبيت والأطفال والعمل والمال والفرح والصّديق والحقّ والخوف والقدر والربّ. لم أدخل؟ أي مازوشيٍّ أنا كي أدخل وأحتمل المزيد من رؤية الإسمنت يصبّ على قبور رفاقي، المزيد من انهيارات أصدقائي ومآسيهم، المزيد من نوبات الاختناق ليلًا والهلوَسات صباحًا، المزيد من مواقف الذلّ اليوميّ لأجلٍ ورقةٍ طبعوا عليها رقمًا فصارت قوّة، المزيد من العلاقات الفاشلة وتحطّم السّفن قبل أن تقلع حتّى.. لا لن أدخل. سأترك هذه الثّلاثين لأهلها وأمضي شابًّا عشرينيّ الجسد ستّينيّ الرّوح.

مددتُ يدي لأقفل الباب للمرّة الأخيرة وأرجع من حيث أتيت وإذا بي أستيقظ مرتاحًا دون منبّهٍ مستقيلًا من العمل التّافه، أشرب قهوتي مغليّة جدًّا على نارٍ خفيفة، أسمع صوت أمّي على الهاتف تطمئنني أنّ حصّتي من مونة السّنة محفوظةٌ من الكشك والمكدوس والمربيات، أرى التّجاعيد قد بدأت بالتّفتيح في وجه أُختي عندما تضحك تلك الضّحكة الحلوة الّتي لم تتغيّر منذ وُلِدَت، أرى أبي يسقي الرّمانة ويرشّ الماء على أحفاده الصغار ويضحك، ما أحلاهم! أسهر مع رفاق غربتي غرباء هذه المدينة نغنّي ونضحك ونبكي حتّى الصّباح، تطرق بابي تلك الحلوة وتبتسم لي وتغمرني، أنا أشعر من جديد! أرتّب مكتبتي وأضع برنامجًا لقراءة كلّ ما فيها من رواياتٍ ودواوين وأبحاثٍ، أعلّق غلافات كلّ ألبومات الموسيقى التي أجمعها مذ كنت طفلًا على الحائط وأبتسم كلّما نظرت إليها، أرتّب أغراضي في البيت كما أهوى وأرتاح وأسمّيه وطني وسط هذا الجحيم، أنظّفُ الشّرفة المهملة منذ سنين، أضع في وسطها كرسيًّا وطاولة وازرع عليها وردًا وحبقًا وسجّادًا وغاردينيا وشايًا وفريزًا.

شممت اليوم زهرة الغاردينيا الأولى التي تفتّحت وأكلت أوّل حبّة فريزٍ من حديقتي الصغّيرة، أشهى من طعام السّوق كلّه. أضعُ قليلًا من الطّعام في حوض السّمكة المقاتلة الزّرقاء الصغيرة أمامي على الطّاولة، أختارُ فيلم اللّيلة من الألف وسبعين

فيلمًا في لائحة الأفلام الّتي يجب أن أشاهدها قبل موتي، أستمعُ إلى صوت باريسا الملائكيّ وأدخّنُ كما لو أنّها سيجارتي الأولى، ثمّ أكتب السّطر الأخير من هذا الكتاب مبتسمًا. لا لن أقفل الباب ولن أطيلَ الوقوف على عتبته، سأدخُلُ حتمًا. لن أحرم نفسي والّذين أحبّهم من كل هذا. سأخلعه نهائيًّا وأرميه نحو الشّمس. لن أقتل الجلّاد في داخلي فهو بالرّغم من كلّ شيئ طيّب القلب مغسول الدّماغ. سأحبُّه، هذا كلّ ما يحتاجه المرء في دنيا الكراهية هذه كي يصمد وينتصر، شخصٌ واحد يحبّه بصدق.

اليوم عيد الأضحى.

لَم يَكُن ذَكَاءً خَارِقَاً مِنكَ اكتِشَافَ لُعبَتِي. بِالعَكسِ تَمَامَاً، لقَد كَان غَباءًا شَديداً مِنكَ أن تَمُرّ عَليك كُلّ هَذه السَّنوات قَبلَ اكتشَاف أَمرِها. سَنوَاتٌ طَويلةٌ وَأنَا أَنمُو وَأقتَاتُ مِن خَيبَاتِكَ وَهَزَائِمِك وانكِسَاراتِك مِن دَاخِل الداخِل. فِعلاً أَعشقُ أفعَال الأمرَ وأَنتشِي بِرُؤيتِكَ تُنفِّذهَا بِإتقان. أظنُّ أنَّ اللهَ يعرفُ جَيّداً قِيمةَ فِعلِ الأمرِ وَنتِائِجِهِ حَتّى كَان أوّلَ مَا خَطَّهُ الوَحي، إقرأ.